رؤية الإِمَام عَبد القَاهِر الْجُرْجَانِيّ ومَنْهجُه في دراسة الإِعْجَاز الْقُرْآنِيّ

الباحث

د. علي يحيى نصر عبد الرحيم
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في
كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر
الأستاذ المشارك في كلية المجتمع، جامعة تبوك

رؤية الإمَام عَبد القَاهِر الْجُرْجَانِيّ ومَنْهجُه في دراسة الإِعْجَاز الْقُرْآنِيّ

علي يحيى نصر عبد الرحيم

قسم البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهرالأستاذ المشارك في كلية المجتمع، جامعة تبوك

البريد الإلكتروني :aabdelrahem@ut.edu.sa

المخلص:

لم يحظ نتاج باحث في محيط الدراسات البلاغية والبيانية قديمًا أو حديثًا مثلما حظي به نتاج الإمام عبد القاهر الجرجاني دراسةً ونقدًا وتحليلًا، وفي خضم سيل منهمر من المقاربات والبحوث يتوجّه هذا البحث نحو إبراز رؤية الإمام عبد القاهر ومنهجه في تناول قضية الإعجاز القرآني وتجليتها على نحو لم يُسبق إليه من قبل؛ مستهدفًا أمرين: أحدهما، التعرّف على كيفية تكوين الفكرة وبناء المعرفة لدى الإمام الجرجانيّ، كونه نموذجًا لغويًّا فريدًا، والثاني، تقديم نموذج جيّد للتجديد في الفكر؛ حيث أبدع عبد القاهر في الانتقال بقضية الإعجاز القرآني من الدينيّ إلى العقليّ، ومن اللغوي المحدود المتمثّل في نمط معيّن من أنماط اللغة كالمجاز وغيره، إلى اللغوي العام؛ مؤسسًا نظرية كليّة متكاملة يقوم الإعجاز فيها على النظم المتفرّد في إطار النظام العام للغة. وقد جاءت الدراسة بعد التمهيد في مبحثين، في أولهما كشف البحث عن رؤية الإمام عبد القاهر حول الإعجاز القرآني، وعن معالم هذه الرؤية، مقارنة برؤية السابقين ممن كتبوا في الإعجاز قبله، وفي الثاني حاول البحث الإجابة عن سؤال المنهج من خلال مطلبين: أحدهما، دار حول المرتكزات والدعائم، والثاني، تناول السّمات والمعالم. وقد انتهى البحث إلى أن الإمام عبد القاهر قد تمّم فكرته بمنهج بعيد الشبه بالمناهج الموروثة حتى عصره، متميزًا في رؤيته عن سابقيه بجعله سرّ إعجاز القرآن الكريم كامناً في نظمه، ومتانة نسجه، وقوة أسلوبه، وروعة بيانه، معللًا لذلك بتوخّي معاني النحو على الوجه الذي يقتضيه العقل. كما انتهى البحث إلى أنّ كتاب الجرجانيّ (دلائل الإعجاز) قد حمل فكرته في صورتها النهائية، بعد أن كان قد مهّد لها في (الرسالة الشافية) و(أسرار البلاغة) من قبل، وأنّ هذه المؤلفات التي وصلتنا نتاجًا لعبد القاهر في البلاغة مترابطة ومتكاملة لتحقيق هدف رئيس هو تجلية قضية إعجاز القرآن الكريم وإرساء معالمها.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر– الإعجاز القرآني– النّظم – اللفظ والمعنى– مناهج العلماء.

The Vision of Imam Abd al-Qaher al-Jorjani and his Approach to the study of the Quranic Miracles

Ali Yahya Nasr Abdel Rahem

Department of Rhetoric and Criticism at the College of Arabic Language in Mansoura, Al-Azhar University, Associate Professor at the Community College, University of Tabuk

Email :aabdelrahem@ut.edu.sa

Abstract :

The works of Imam Abd al-Qaher al-Jorjani in the field of rhetorical have been extensively studied by researchers more than any other works, this research, like the ones before it, is directed towards revealing Imam Abdul Qaher's vision and his approach to the study of the Quranic miracles

The aim of this study of two parts: first being to identify how the idea is formed and to build knowledge of Imam al-Jorjani, as he is a unique linguistic model, and the second is to present a good model for innovation in thought. Where Abd al-Qaher excelled in was moving the issue of the Qur'anic miracles from the religious to the intellectual, and from the linguistic limitations represented by a specific type of language, such as metaphors to Speech order or Theory of (Nazm).

The plan of this study after the introduction came in two sections. In the first, vision of Imam Abd al-Qaher's of the Qur'anic miracle, and the features of this vision, compared to the vision of those who wrote about the miracles before it, and in the second, the research tried to answer the approach question through two requirements: one of them It was revolved around foundations and pillars, and the second dealt with features and milestones. The research concluded that Imam Abd al-Qaher had completed his idea with a method that was far from the methods inherited until his time, thus, he was distinguished in his vision from his predecessors by making it the secret of the miracle of the Noble Qur'an latent content in its systems, the durability of its weaving, the strength of its style, and the splendor of its statement, explaining this by envisaging the meanings of the grammar in the manner that required by reason.

The research also concluded that the book of Al-Jarjani (Dlaael al-eajaaz) communicated his idea in its final form, after it had been prepared for it in (Al-Resala Al- shaafya) and (Asraar Al- blagha) before, and that these books that have come to us are the product of Abdul Qaher in rhetoric and are interrelated and integrated to achieve the main goal which is to clarify the issue of the miracle of the Noble Qur'an and establish its features.

Key words: Abd al-Qaher -Speech order- Miracles of Quranic - Scholars curricula- Nazm Theory- wordes and Meaning

مقدّمة

الحمد لله الرحيم الرحمن، خلق الإنسان، علّمه البيان، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد النبيّ العربيّ المخصوص بمعجزة القرآن، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، أمّا بعد...

فممّا لا شك فيه أنّ قضية الإعجاز القرآنيّ كانت المنطلق الأول والسبب الرئيس في نشأة علم البلاغة العربية ونضجه وتطوره، فقد بدأ البحث البلاغيّ على أساس دينيّ، متمثّل في تدبّر أسرار الكتاب العزيز، وفهم دقائقه ولطائفه، ومعرفة أسباب تفوّقه على ما عداه من الكلم؛ بغية التوصّل إلى سرّ إعجازه الذي قَهَر القُدَر، وعلا به فوق بلاغات البشر. والمتتبّع لحركة التأليف البلاغيّ منذ بدايتها، لا يخفى عليه محوريّة قضية الإعجاز في الفكر العربي المصنّف، بيد أنّ هذه القضية في تصوّرها ودراستها ذهبت مذاهب شتى، وتعدّدت الرؤى وتنوّعت وجهاتُ النظر إزاءها، ومن بين تلك التصوّرات ووجهات النظر المتباينة جاءت مقاربة الإمام عبد القاهر الجرجاني حول الإعجاز القرآنيّ ودلائله متميّزة ومتفردة عمّا قبلها في الرؤية وفي المنهج.

والمتأمّل يجد أنّ غالب الدراسات المعاصرة التي تناولت تراث الإمام عبد القاهر دارت حول القضايا البلاغية التي حوتها مؤلفاته في الإعجاز والبلاغة، انطلاقًا من مبدأ أساسه أنّ الرجل كان يؤسس لعلم البلاغة؛ فمثلًا، نجد أنّ دراسة د. أحمد بدوي «عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية»، ودراسة د. أحمد مطلوب «عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده»، ودراسة د. الذهبي «سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر» وغيرها من البحوث والدراسات المماثلة، نجدها قد ارتكزت على تجلية القضايا البلاغية في تراث الشيخ. ولعل دراستي د. سيد عبد الفتاح حجاب: «نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وصلتها بقضية اللفظ والمعنى»، و«منهج عبد القاهر بين الموضوعية والذاتية» من الدراسات التي تميّزت بتناول عميق لكثير من القضايا والأفكار البلاغية المبثوثة في تراث الرجل، مع الكشف عن أوجه الاختلاف بين عبد القاهر وغيره ممن سبقوه إلى دراسة قضية

(النظم). أما دراسة شيخنا د. محمد محمد أبي موسى _بارك الله في عمره_: «مدخل إلى كتابي عبد القاهر» فإنّها تمثّل نموذجًا لدراسة نوعية تجاوزت العرض والوصف إلى البحث عن الأصول الفكرية والحركة العقلية الكامنة وراء المعرفة البلاغية في تراث الجرجاني. وإذا أراد الباحث أن يستقصي ما كُتب حول عبد القاهر وجهوده في الجانبين البلاغي والنقدي لا يكاد يحصيه. والحقيقة أنّه لم يحظ نتاج باحث في محيط الدراسات البلاغية والبيانية في القديم والحديث مثلما حظي به نتاج الإمام دراسةً ونقدًا وتحليلًا، ذلك أنّ الشيخ –رحمه الله– كان مُلهمًا ومسدّدًا وموفقًا إلى حدّ بعيد.

أمّا عن الدراسات المنهجية حول قضية الإعجاز القرآني في تراث الجرجانيّ مجتمعًا ومتضافرًا ومتكاملًا فما زالت بحاجة إلى جهود أكبر، وتوضيحات أكثر، ولعلّ السبب في ذلك من وجهة نظرنا هو أنّ غالب الباحثين نظر إلى مؤلفات الشيخ التي وصلتنا في الإعجاز والبلاغة على أنّها منبتّة الصلة غير مترابطة ولا متكاملة، وأعني بذلك مؤلفاته الثلاثة: "الرسالة الشافية في الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز"، فكثير من الدراسات والبحوث التي تناولت الإعجاز عند عبد القاهر لم يصدر عن نظرة نصيّة شمولية تتلمس الخيوط الرفيعة والعلاقات اللطيفة بين مؤلفات الإمام عبد القاهر لتربط بينها في بحث معالجة الشيخ لقضية الإعجاز.

وهذا البحث في توجّهه نحو إبراز رؤية الإمام عبد القاهر ومنهجه حول قضية الإعجاز القرآني يهدف إلى أمرين: أحدهما، التعرّف على كيفية تكوين الفكرة وبناء المعرفة، من خلال احتذاء نموذج لغوي بلاغيّ فريد، لم يتطرق إليه أحد من العرب أو العجم في القديم والحديث إلا شهد له بالعبقرية والسبق والإبداع والتميز. والتوصّل إلى كيفية بناء المعرفة مطلب مهم جدًا في نطاق البحث، شأنه في ذلك شأن المعرفة ذاتها إن لم يزد عليها في الفضل والأهمية، وهو من أوجب الواجبات التي ينبغي على السابق أن يورثها للاحق؛ حيث يقول شيخنا الدكتور محمد محمد أبو موسى: "لا أجلّ من العلم إلا أن نتعلم كيف بنى العلماء العلم، وليس تحصيل العلم مع أهميته بكافٍ في تربية الأجيال، لا يكفي أن نعلمهم كيف يحصّلون، وإنما لا بد أن

نعلمهم كيف يبنون، ومن تعلّم البناء بنَى، ومن بنَى كدّ، ومن كدّ اشتدّ، ومن اشتدّ حفظ ورعى وحمى"[1]. والأمر الثاني الذي يهدف إليه هذا البحث هو تقديم نموذج جيّد للتجديد في الفكر اللغوي، حيث أبدع الإمام في الانتقال بقضية الإعجاز القرآني من الدينيّ إلى العقلي، ومن اللغوي المحدود المتمثّل في نمط معيّن من أنماط اللغة كالمجاز وغيره، إلى اللغوي العام؛ ليؤسس نظرية كليّة متكاملة يقوم الإعجاز فيها على النظم المتفرّد في إطار النظام العام للغة.

وتأتي هذه المقاربة في خضم سيل منهمر من المقاربات والبحوث السابقة، لتحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف انطلق عبد القاهر من ثقافته الدينية واللغوية ليبلور رؤيته المتفردة حول الإعجاز القرآني؟ وما معالم هذه الرؤية؟ وبمَ تميّزت رؤيته عن رؤية غيره ممن كتبوا في الإعجاز قبله؟ وما المنهج الذي انتهجه لتحقيق رؤيته؟ وما المرتكزات والدعائم التي ارتكز عليها منهجه؟ وما معالم ذلك المنهج؟ وما سماته؟

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي مقتضبة موجزة؛ لأنها بمثابة التلخيص والبلورة لجهود سابقة لا يمكن إغفالها أو التقليل من شأنها، أمّا عن خطة البحث فتسير الدراسة بعد التمهيد في مبحثين، في المبحث الأول يكشف البحث عن رؤية الإمام عبد القاهر حول الإعجاز القرآني، وعن معالم هذه الرؤية، مقارنة برؤية السابقين ممن كتبوا في الإعجاز، ويأتي المبحث الثاني ليجيب عن سؤال المنهج من خلال مطلبين: أحدهما، دار حول مرتكزات المنهج ودعائمه، والثاني، تناول سمات المنهج ومعالمه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب.

الباحث

د. علي يحيى عبد الرحيم

(١) مناهج علمائنا في بناء المعرفة: ص٢٠٦، منشور ضمن محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، السعودية:١٤٢٠/١٩٩٩م.

تمهيد

أولًا: الإعجاز القرآني

الإعجاز: مصدر الفعل الرباعيّ (أعجَزَ)، والجذر الثلاثي للكلمة هو (عجز)، قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): "العين والجيم والزاي أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدُهما على الضَّعف، والآخر على مؤخَّر الشيء. فالأول، عَجِزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي ضَعيف...، ويقال: أعجزَني فلانٌ، إذا عَجِزْت عن طلبه وإدراكه...، وأمَّا الأصل الآخر فالعَجُز: مؤخَّر الشيء، والجمع أعجاز"(١)، وفي لسان العرب: "الإعجاز: الفوت والسبق، يقال أعجزني فلان: أي فاتني، وعجزت عن طلبه وإدراكه"(٢)، فالإعجاز في اللغة بحسب ما أورد ابن فارس وابن منظور (ت٧١١هـ) يدلّ على إظهار الضعف، بتأخر العاجز عن إدراك الأمر المعجِز.

والمعجزة بوجه عام هي: "أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مُدّعي النبوة عند دعواه إياها، شاهدًا على صدقه"(٣)، أمّا الإعجاز القرآني فهو كما عرّفه د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: "عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفّر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحديهم، وتقرير عجزهم عن ذلك"(٤).

وقد جرت سنّة الله -عزّ وجلّ- مع أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- أن يؤيدهم بالمعجزات وخوارق العادات؛ تثبيتًا لقلوبهم، وتأكيدًا

(١) معجم مقاييس اللغة: ٢٣٢/٤، تح. عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب، لابن منظور: ٥٨/٩، تح. أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٣: ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني: ٥٣/١. تح. مكتب البحوث والدراسات، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م.

(٤) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني: ص١٧. دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

على صدق دعوتهم، فكان لكلّ نبيّ معجزته الحسيّة الدامغة، المشاكلة لما نبغ فيه قومه وبرعوا؛ فمثلًا، كان لموسى –عليه الصلاة والسلام– عصاه التي صارت حيّة تسعى تلقف ما ألقاه سحرة فرعون وما كانوا يأفكون، في الوقت الذي وصل فيه السحرة إلى درجة عالية من التمكن في السحر، وهكذا كانت معجزات بقية الأنبياء(١). ولما كانت المعجزات الحسيّة تنتهي بانتهاء زمنها، ويزول أثرها بزوال من شاهدها، شاءت إرادة الله –عزّ وجلّ- أن تكون معجزةُ الرسالة الخاتمة التي ابتعث الله بها نبينا محمدًا -ﷺ- معجزةً خالدةً باقية على مرّ الأزمنة وتتابع العصور، فكانت معجزته -ﷺ- قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عوج، قَهَر بيانُه القُدَر، وعلت بلاغته فوق بلاغات البشر.

لقد حار العرب إزاء هذا النمط البديع من الكلام، فوصفوه بالشعر حينًا، وبالسحر حينًا آخر، وادّعوا أنّ بالإمكان تعلّمه، وأنّ محمّدًا -ﷺ- كان يتلقّاه من بشر أعجمي! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(٢)، فجاءهم التحدّي من خلال القرآن ذاته، حيث تحداهم أولًا(٣) في أن يأتوا بمثله، وذلك في سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾(٤)، فلمّا عجزوا، تحدّاهم في أن يأتوا بعشر سور مثله مختلقاتٍ كما في زعمهم، وإمعانًا في التحدّي فُتح لهم الباب ليستعينوا بأي كان ممن يرتجى عونه، وذلك في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٥)، فلمّا عجزوا، تحداهم في أن

(١) ينظر السابق: ص٢٥.

(٢) سورة النحل: آية ١٠٣.

(٣) هذا الترتيب لآيات التحدي من حيث النزول، حسب أصح الأقوال، وقد أيّد هذا الترتيب الإمام السيوطي، ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٩٨/١، تح. سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

(٤) سورة الطور: آية ٣٤.

(٥) سورة هود: آية ١٣.

يأتوا بسورة من مثله في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، ثم كُرر التحدي في الإتيان بالمقدار نفسه في سورة البقرة، مع التأكيد والجزم بعدم استطاعتهم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(٢)، ثم جاء الإعلان الأخير الدامغ في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٣)، ليسُد جميع المنافذ، وليؤكّد التحدّي المطلق، وليثبت الإعجاز التام للقرآن الكريم، ومن ثمّ غدا القرآن الكريم معجزَ أحمد، ودليل نبوته.

وقد كان الإعلان بالتحدّي مبكرًا منذ بدايات الدعوة، فقد جاءت الآية الأولى المؤذنة بالتحدّي، وهي قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾(٤) في سورة الطور، والطور سورة مكيّة، وظلّت آيات التحدّي بعد ذلك تتنزّل خلال فترات زمنية متباعدة إبّان العهدين المكيّ والمدنيّ، وظلّ رسول الله -ﷺ- رافعًا لواء التحدي زهاء ثلاثة وعشرين عامًا، فما رفع القوم بذلك رأسًا، وهم يومئذ أرباب البلاغة وملوك البيان، وباستثناء تلك المحاولات الفاشلة التي حاولها مسيلمة الكذّاب ومن على شاكلته من مدّعي النبوات كالأسود العنسي، وسجاح التميمية، والتي أسفرت عن عبارات ركيكة ادّعى الأفّاكون أنها قرآنًا، أقول: باستثناء تلك الترّهات، لم يذكر لنا التاريخ أنّ القوم استجابوا للتحدّي الذي ووجهوا به أو حاولوا، على الرغم من أنفتهم الشديدة، وحميتهم التي تأبى عليهم التقاعس

(١) سورة يونس: آية ٣٨.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٣، وآية ٢٤.
(٣) سورة الإسراء: آية ٨٨.
(٤) سورة الطور: آية ٣٤.

والخضوع، بل ظلوا ينهون عنه وينأون عنه ويصدون عن سبيله، لعلمهم ما لحسن بيانه من بالغ الأثر في القلوب، وعظيم السطوة على النفوس. ولما لم يستجب العرب لمطلوب التحدّي، فُتّ في عضدهم، وثبت عجزهم. ومن خلال الاستنتاج المنطقي فقد ثبت إذن للقرآن الكريم إعجازه، وثبت لكلّ ذي عقل سليم أنّه ليس من كلام البشر، وأنّه لا طاقة لمخلوق أن يأتي به ولا بمثله، وأنّه كما قال منزله في شأنه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٢)، ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٣).

والحقيقة أنّ الغاية من الإعجاز ليست إثبات العجز لذاته؛ حيث إنّه من المعلوم عجز الخلق وقصورهم عن مضاهاة الخالق في صفاته وأفعاله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنما "المقصود هو اللازم الناتج عن هذا الإعجاز، وهو إظهار وإثبات أنّ هذا الكتاب حقّ ووحي من عند الله تعالى، ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول -ﷺ- فيما جاء به قومه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام، وعليه فإنّ حقيقة الإعجاز وهي إثبات العجز لمن وقع عليه التحدي استلزمت إظهار هذا العجز، وهذا الإظهار بدوره استلزم صدق رسول الله -ﷺ- وهو المقصود الأول من الإعجاز"(٤).

(١) سورة الواقعة: آية ٨٠، وسورة الحاقة: آية ٤٣.

(٢) سورة فصلت: آية ٢.

(٣) سورة فصلت: آية ٤٢.

(٤) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز، د. محمد السيد راضي جبريل: ص٨. بحوث ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه ١٤٢١هـ.

ثانيًا: الإمام عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد[١]، الإمام النحوي، المتكلم على مذهب الأشعري، الفقيه على مذهب الشافعي، وُلد في (جُرجان)[٢] في مطلع القرن الخامس الهجري، وإليها نسبته، وقد أثنى ياقوت الحموي على حسن أخلاق أهل هذه البلدة عامة، حيث قال: "وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة، وقد خرج منها خلق كثير موصوفون بالستر والسخاء"[٣]. وتكاد تجمع المصادر التي ترجمت للجرجانيّ أنه كان إمامًا في العربية واللغة والبيان وقيل في فضله: "هو فرد في علمه الغزير، لا، بل هو العلم المفرد في الأئمة والمشاهير، واتفقت على إمامته الألسنة"[٤]، وعلى الرغم من شهرة الإمام عبد القاهر وذيوع صيته ورسوخ قدمه في علم العربية، إلا أنّ كتب التراجم والسير نادرًا ما تذكر شيئًا عن حياته! وهذا الأمر لفت انتباه غير واحد من الذين درسوا الجهود البلاغية للإمام عبد القاهر وترجموا له[٥]، ومن العجيب أنّ كتب التراجم القديمة لم تذكر تاريخ

(١) انظر ترجمته في: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنباري: ص٣٦٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة (بدون)، وإنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي: ١٨٨/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ/١٩٥٢م (الأولى). وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي: ٣٤٠/٣، ط. القدسي، القاهرة: ١٣٥١هـ. وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي: ٢٤٢/٣، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) جُرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، قيل إنّ أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق كثير من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، انظر معجم البلدان، لياقوت الحموي: ج٢/ص١١٩ ،١٢٠.

(٣) معجم البلدان: ج٢/ص١١٩.

(٤) دمية القصر وعصرة أهل العصر، للباخرزي، ج٢ص١٢، تح. د. سامي العاتي، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

(٥) يقول د. أحمد مطلوب: "وحينما نرجع إليه لنتحدث عنه، نجد المصادر القديمة لا تذكر عنه إلا عبارات قليلة لا تكوّن فكرة واضحة، مع شهرته في النحو والبلاغة"، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص١٣، دار العلم لملايين، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ، ويقول د. أحمد أحمد بدوي: "وقد حاولت أن أدرس حياة الرجل بمقدار ما أسعفني به ما بقى من تراجمه، وهي قصيرة بوجه عام". عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص٣، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة (بدون).

مولد هذا الحبر الفذ! مع اختلاف في تاريخ وفاته ما بين سنة ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ؛ ولعلّ ذلك مردّه إلى زهد الشيخ وورعه[١] وما يقتضيه هذا الخُلق من النأي بالنفس عن مخالطة ذوي الصيت والسلطان من الأمراء والأعيان وغيرهم، ومن ثمّ الابتعاد عن دائرة الضوء التي عادة ما تُسلط على أمثال هؤلاء والمقربين منهم، فضلًا عن مكثه ببلدة (جرجان)[٢] التي ولد فيها، وعدم تنقله بين الحواضر. والله أعلم.

أمّا عن شيوخه وأساتذته فلم يُذكر لعبد القاهر في الكتب التي ترجمت له إلا أستاذٌ واحد، هو شيخه أبو الحسين محمد بن عبد الوارث الفارسي، وهو ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، وقد درس عبد القاهر على شيخه كتاب (الإيضاح) لأبي علي الفارسي[٣]. وقد اشتهر عبد القاهر في غالب المصادر التي ترجمت له بالنّحوي، وعدّه أبو البركات الأنباري من أكابر النحويين[٤]، كما عُرف فضله وتقدّمه في علوم العربية بوجه عام، ومن ثمّ وصفه الفيروزأبادي بأنّه: "إمام العربية واللغة والبيان"[٥]، ومن مصنفاته التي وصلتنا في النحو وعلوم العربية: كتاب "الجمل"، وكتاب "المقتصد في شرح الإيضاح"، وهو شرح متوسط لكتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وكتاب "العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية"، وكتاب "التتمة في النحو"، وكتاب "المفتاح في الصرف"، وله في الأدب والشعر كتاب "المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام"، وللجرجاني بعض التصانيف التي لم تصل إلينا، والتي أشارت إليها بعض المصادر التي عنيت بالتعريف بالكتب، من ذلك: كتاب "الإيجاز"، و"المغني"، و"التلخيص"، وله كتاب في العروض،

(١) أشار السبكيّ في "طبقات الشافعيّة" إلى أنّ عبد القاهر كان ذا دين متين في ورع وسكون. انظره: ٢٤٢/٣.

(٢) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (م.س): ج٣٠٨/٥.

(٣) انظر: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب: ص١٢.

(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنباري (م.س): ص ٣٦٣.

(٥) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص١٨٦، تح محمد المصري دار سعد الدين، دمشق، ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

ذكره ابن شاكر الكتبي، ولم يذكره غيره[١]. ولا شك في أنّ ثقافة عبد القاهر اللغوية عمومًا والنحوية على جهة الخصوص كان لها دور كبير في بلورة نظريته في (النظم) الذي هو مناط الإعجاز وموطن التحدي لديه.

ولا نريد ههنا أن نستفيض أو نستقصي في ترجمة الإمام عبد القاهر، فلذلك مظانه من البحث، لكنّ الذي يهمّنا في هذا التمهيد والذي له صلة وثيقة بموضوع البحث هو أن نركز على ثقافة الإمام عبد القاهر وآثاره في مجال الدراسات القرآنية والإعجاز القرآني فضلًا عن البلاغة والبيان، وذلك من خلال مؤلفاته التي أشارت إليها كتب الطبقات والتراجم، حيث أشارت هذه المصادر إلى عدة مؤلفات للشيخ في هذا النطاق، منها ما وصلنا، ومنها ما لم يصلنا، فمن تصانيفه التي لم تصلنا:

١.كتاب "شرح الفاتحة": ولا تذكر كتب الطبقات والتراجم عن هذا الكتاب شيئًا سوى أنّه يقع في مجلد واحد[٢]، ويرجّح الدكتور أحمد مطلوب أن يكون هذا الكتاب لعبد القاهر "تطبيقًا لنظريته في النظم، أو لمنهجه في التفسير"[٣]، وليس مستبعدًا أن يكون كما ذكر د. مطلوب.

٢.كتاب "المعتضد": وهو شرح لكتاب إعجاز القرآن لأبي عبد الله محمد ابن يزيد الواسطي[٤]، وهذان الكتابان (الشارح منهما والمشروح) من الكتب التي لم تصل إلينا.

٣.وله كتاب سماه السبكي بـ"إعجاز القرآن الكبير"[٥]، وسماه آخرون "إعجاز القرآن"[٦]، وقال عنه القفطي: "وله إعجاز القرآن، دلّ على

(١) ينظر: فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتبي: ٧٠٠/١. تح. د. إحسان عباس، دار صادر (د.ت).

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي: ٤٣٣/١٨، تح. شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. وفوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتبي: ٧٠٠/١، وشذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي: ٣٤٠/٣.

(٣) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده: ص٢٥.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي: ١٥٠/٥.

(٥) ينظر السابق: نفسه.

(٦) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٤٣٣/١٨، وفوات الوفيات: ٧٠٠/١.

معرفته بأصول البلاغات ومجاز الإيجاز"[١]. وربما كان هذا الكتاب هو نفسه كتاب "المعتضد" السابق.

٤.كتاب "إعجاز القرآن الصغير": وهو مختصر أعاد فيه الجرجاني شرحه مرة أخرى لكتاب الواسطي[٢].

أمّا آثاره التي وصلتنا في مجال الإعجاز القرآني فتتمثل في: "الرسالة الشافية". هذا فضلا عن كتابيه الأكثر شهرة في علم البلاغة والبيان وهما: "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، ومن خلال تضاعيف هذين الكتابين الفريدين تتّضح لنا الثقافة العلمية الواسعة التي كان يتمتع بها عبد القاهر، والتي حصّلها من معارف من سبقوه من الأئمة الجهابذة المشهود لهم بالريادة والتميّز في علوم العربية، فمن خلال (الأسرار) و(الدلائل) تتجلّى لنا ثقافة الشيخ الواسعة، واطلاعه على نتاج واسع للأفذاذ من العلماء الذين سبقوه، ومن خلال ما سطره عبد القاهر في مؤلفاته يستطيع الباحث أن يؤكد أنّ الشيخ قد قرأ لكل من: سيبويه[٣]، والجاحظ[٤]، والزجاج[٥]، والهمذاني[٦]، وابن دريد[٧]، والآمدي[٨]، وأبي علي الفارسي[٩]، وأبي أحمد العسكري[١٠]،

(١) أنباء الرواة على أنباه النحاة: ١٨٩/٢.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى: ١٥٠/٥.

(٣) راجع: دلائل الإعجاز، تح. محمود محمد شاكر، المدني بالقاهرة، وجدة – ط/٣، ١٤١٣هـ /١٩٩٢م، ص١٠٧.

(٤) راجع: أسرار البلاغة، تح. محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، ط١، ١٤١٢هـ: ص ٩، ١٤، ٦٧، ١٤٧. ودلائل الإعجاز: ص١٥، ٥٧، ٧٨، ٩٧، ١٦٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٩٢، ٣١٨، ٣٨٩، ٤٨٢، ٥٠٨، ٥١١، ٥٦٦.

(٥) انظر: دلائل الإعجاز: ص ٣٢٨، ٤٣٩.

(٦) المقصود هو: عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: ينظر السابق: ٣٨٤.

(٧) انظر أسرار البلاغة: ص ٣٩، ٣٩٩.

(٨) انظر: دلائل الإعجاز: ص٥٥٣.

(٩) انظر: أسرار البلاغة: ص٤١٩. ودلائل الإعجاز: ص٢٠٤، ٣٢٨، ٥٠٢.

(١٠) انظر: أسرار البلاغة: ص ١١٣.

والمرزباني[١]، والقاضي الجرجاني[٢]، وأبي هلال العسكري[٣]، وربما غيرهم، هذا فضلًا عن معرفة الرجل وعلمه الغزير فيما يتصل بالنتاج الأدبي لفحول الشعراء والكتّاب ومن هم دونهم من الأقدمين والمعاصرين، وخبرته الثاقبة الناقدة بالجيد منه والرديء.

وقبل أن نطوي هذا التمهيد لا ينبغي أن يغفل الباحث تلك النزعة الدينية الإيمانية التي كان ينطوي عليها عبد القاهر، والتي يمكن التقاطها من خلال بعض اللمح التي وصفت الشيخ وشمائله، فقد وُسم الشيخ في الكتب التي ترجمت له بأنّه "الفقيه على مذهب الشافعي"[٤]، وبأنّه "كان ورعًا قانعًا"[٥]، ونقل الإمام الذهبيّ أنّ عبد القاهر "دخل عليه سارق فأخذ ما وجد وهو في الصلاة ينظر إليه فما قطعها"[٦]، وهذا السلوك يذكرنا بسمت الرعيل الأول من جيل الصحابة والتابعين الذين لم يكن يشغلهم شيء عن مناجاة ربهم وهم وقوف بين يديه سبحانه في صلاتهم، وجُل المصادر التي ترجمت لعبد القاهر ذكرت أنّ الرجل "فيه دين"[٧]. وأشار د. درويش الجندي إلى أنّ من أثر تدين عبد القاهر أنّه جعل الدين قبل البلاغة جلّ اهتمامه في التأليف؛ فهو لم يكتب في البلاغة لذاتها، وإنّما كتب خدمة لعقيدته ودينه، ورغبة في أن يفهم الناس الإعجاز القرآني كما ينبغي أن يفهم في رأيه[٨]. كما أكد د.

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ص ١٣، ١٥٨، ٤٨٥، ٥٠٢.

(٢) انظر: أسرار البلاغة: ص١٢٩، ١٣٣، ١٩٧، ٢٠٣، ٣٢١، ٣٩٩. ودلائل الإعجاز: ص٤٣٤، ٥٠٩.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز: ص٤٧٠.

(٤) راجع: سير أعلام النبلاء: ٤٣٣/١٨. وشذرات الذهب: ج٥/٣٠٨.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٤٣٣/١٨.

(٦) السابق: نفسه.

(٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ج٥/٣٠٨، وسير أعلام النبلاء: ٤٣٣/١٨، وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي: ٢٤٢/٣.

(٨) ينظر: نظرية عبد القاهر في النظم، نهضة مصر، ص٨-٩.

أحمد مطلوب أنّ عبد القاهر كان ينظر إلى النصوص نظرة خلقية تقوم على الدين(١).

إذًا، وكما يقرر د. الأخضر جمعي فإنّه لا بد من التسليم مبدئياً بأنّ نظرية عبد القاهر في النصّ الأدبي لها أساسها العقائدي المتجذّر في قناعات دينية وحضارية، ملتبسة بعلوم ومعارف أصيلة تقوم على سند مكين من اللغة والنحو، وأن تحديد مواصفات الكلام البليغ انطلاقاً من هذا الإطار(٢). ومن ثمّ يزعم الباحث أنّ مؤلفات الشيخ عبد القاهر في الإعجاز والبلاغة متصل بعضها ببعض، وأنها جاءت متكاملة لتصب في هدف رئيس واحد من أجله انتدب الشيخ له قلمه وسخّر له مداده، هذا الهدف هو بيان وجه إعجاز القرآن الكريم والبحث في دلائله، وهذا ما سوف يتناوله الباحث مفصلًا في تضاعيف البحث وثناياه.

(١) راجع: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده: ص٢٥٤.

(٢) ينظر: اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، د. الأخضر جمعي: ص١٨٩، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م.

المبحث الأول

رؤية الجرجانيّ حول الإعجاز القرآنيّ

كانت قضيّة الإعجاز القرآنيّ مطروحة على ساحة الفكر الإسلاميّ قبل عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) بزمن بعيد، وكانت تشكّل محورًا مركزيًا لدى المتكلمين والبيانيّين على حدّ سواء. ولا شكّ في أنّ أساس القضية وحجر زاويتها هو التسليم بإعجاز القرآن الكريم أصلًا، وأنّ هذا الأصل ثابت في الأفهام وراسخ في الأذهان لدى كافة أطياف الفكر الإسلاميّ على اختلاف المنازع والمشارب، أمّا النقطة الأولى التي بدأ منها البحث في هذه القضية فتتمثّل في بيان خصائص الأسلوب العربي الذي على نمطه يجري البيان القرآني(١)؛ وهذا المنطلق لخّصه ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في قوله: "وإنما يَعرف فضل القرآن مَن كثُر نظرُه، واتّسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات"(٢). بعد ذلك انتقل البحث إلى النقطة الثانية التي تمثّلت في فكرة مفادها: "إذا كان القرآن عربيًّا جاريًا على نمط أساليب العرب في منطقهم، ففيم كان الإعجاز؟ وبم يُعلل هذا الإعجاز؟"(٣)، ومن ثمّ اختلفت الآراء حول وجه الإعجاز، وتعددت الرؤى، وتعارضت الحُجَج، وعُزي الإعجاز ثمة إلى وجوه كثيرة:

تباين الرؤى قبل عبد القاهر

عندما عُني البحث في قضية الإعجاز بالكشف عن وجه الإعجاز ظهرت على ساحة الفكر الإسلاميّ عدة توجهات، منها ما هو قائم على أنّ القرآن الكريم قد أعجز العرب الذين نزل فيهم في زمن النبوّة، لا لشيءٍ في ذاته؛ وإنّما لأنّ الله -ﷻ- قد صرفهم عن الإتيان بمثله، فهو إذن معجزٌ

(١) انظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، د. مصطفى الجويني: ص ٢٠٤ وما بعدها. دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨م

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص٥، تح. السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٣) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: ص٢٠٥.

بالصَّرفة، ومنها ما هو قائم على أنّ القرآن أعجز العرب؛ لاشتماله على ما لا يطيقون الإتيان به، من مثل الإخبار بالغيب، ومنها ما هو قائم على أنّ القرآن معجز بلغته وأسلوبه، وتأليفه ونظمه، كونه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في الفصاحة والبلاغة والبيان، ويمكن القول بأنّ الفكر الإسلامي المصنّف قبل الإمام عبد القاهر قد انقسم إزاء تفسير ظاهرة الإعجاز القرآني إلى قسمين أساسيين: قسم يقول بالصَّرفة، والقسم الآخر يرُدّ الإعجاز إلى ما اشتمل عليه القرآن ذاته ممّا لا يطيق البشر الإتيان بمثله من الإخبار بالغيب، ومن بديع التأليف، وعجيب الأسلوب، والفريق الثاني يرى أنّ إعجاز القرآن الكريم في لغته وفي نظمه.

والجدير بالذكر ههنا أنّ الفكر الإسلاميّ قد انقسم في تصور وجه الإعجاز حتى بين ذوي الاتجاه الواحد وأبناء المدرسة الفكرية الواحدة، فعلى سبيل المثال، كان إبراهيم بن سيار النظّام المعتزلي (ت٢٣١هـ) من القائلين بالصَّرفة، وكان يرى أنّ "الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأمّا التأليف والنظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد؛ لولا أنّ الله صرفهم"(١)، بينما كان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) يرى أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه، على الرغم من اشتراكه مع النظّام في الانتماء لمدرسة الاعتزال، ومما ورد له في ذلك قوله: "... وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد"(٢)، ومع ذلك كان الجاحظ يرى أنّ الله -عزّوجلّ- قد رفع من أوهام العرب استطاعة الإتيان بمثله، ومن ثمّ كان الجاحظ يرى أنّ للإعجاز وجهين(٣)، أحدهما أنّ القرآن معجز

(١) انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري: ٢٧١/١، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية صيدا بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٢) مما ورد للجاحظ في هذا الصدد قوله: "... وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد..." الحيوان: ٩٠/٤، تح. عبد السلام محمد هارون، ط. مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية: ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

(٣) انظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: ص٢٠٧.

بنظمه وتأليفه، والثاني أنّ الله صرف الناس عن أن يعارضوا هذا الإعجاز القرآني. والفرق بين رؤية الجاحظ ورؤية النظّام للصرفة "أنّ النظام يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن، والإعجاز في صرف الله لهم عن هذا الصنيع. أمّا الجاحظ فيرى أن القرآن يصرف أطماع البلغاء عن الإتيان بمثله؛ ليأسهم من استواء كلامهم على مرتبة عالية لا تتخلف من الجودة كما هو الأسلوب القرآني الذي يجري جميعه على نمط واحد في الجودة المعجزة القاطعة للأطماع"(١).

وكان ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) قد أشار إلى كون النظم وجهًا من وجوه إعجاز القرآن حين قال: "... وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبان بعجيب النظم عن حيل المتكلفين"(٢)، وذكر الرماني (ت٣٨٦هـ) أنَّ القرآن معجز ببلاغته، وحدّ البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب في حسن صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم(٣)، ويرى الخطّابي (ت٣٨٨هـ) أنَّ القرآن "إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمّنا أصح المعاني"(٤)، أمّا عن نظم القرآن فيقول الخطّابي: "ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشدّ تلاؤما وتشاكلًا من نظمه"(٥). وألّف القاضي أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٤هـ) كتابه "إعجاز القرآن"، وفيه يرى أنّ نظم القرآن خارج عن المعتاد في نظم كلام العرب، حيث يقول: "فأما شاو نظم القرآن، فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقًا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل

(١) السابق: نفسه.

(٢) تأويل مشكل القرآن: صـ ٣.

(٣) انظر: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): صـ ٥، ٩٦، تح. محمد زغلول سلام، ومحمد خلف، ط. دار المعارف بمصر (د.ت).

(٤) بيان إعجاز القرآن، للباقلاني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص ٢٧.

(٥) السابق: نفسه.

العجيب"[١]، كما يرى الباقلاني أنّ النظم القرآني متساوٍ كله في درجة الحسن، وذلك قوله: "وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حدٍّ واحد، في حسن النظم وبديع التأليف والصرف"[٢]. ويرى ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) أنّ للإعجاز القرآني وجهين[٣]: أحدهما، أنّه خرق العادة بفصاحته التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر، والوجه الثاني صرف العرب عن المعارضة مع أنّ فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف؛ لأنها من جنس فصاحتهم، وفسر ابن سنان الفصاحة بأنها أمور جمالية في اللفظ استقاها من كلام العرب.

رؤية الإمام عبد القاهر حول الإعجاز

إذا كانت رؤى السابقين حول وجه الإعجاز القرآني قد توزعت بين القول بالصرفة والقول بالنظم، فإنّ رؤية الإمام عبد القاهر الجرجاني قد ارتكزت على القرآن في ذاته، حيث لا يرى الشيخ رأيًا أحكم ولا مذهبًا أسلم من كون إعجاز القرآن الكريم في نظمه، ومتانة نسجه، وقوة أسلوبه، وروعة بيانه. وقد عارض عبد القاهر فكرة الإعجاز بالصرفة التي ارتآها بعض المتقدمين عليه، والتي ركزت على كون الإعجاز في شيء خارج القرآن لا في ذاته معارضةً شديدة.

كانت بداية النظر لدى عبد القاهر مبنية على اتجاه ديني[٤]، وذلك في مؤلفه الموسوم بـ (الرسالة الشافية في الإعجاز) التي بينّ فيها أنّ القرآن قد

(١) إعجاز القرآن: ص١١٢، تح. السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر ضمن سلسلة ذخائر العرب (د.ت).

(٢) السابق: ص٣٧.

(٣) انظر: سر الفصاحة: ص١٥٤، تح. عبد المتعال الصعيدي، ط. صبيح، القاهرة ١٩٦٩.

(٤) انظر: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني (سلسلة الدراسات البلاغية)، د. محمد بركات حمدي أبو علي: ص٤٢٠، دار الفكر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

تحدّى العرب في أن يأتوا بمثله، لكنهم لم يستجيبوا لنداء التحدّي على الرغم من قوة فصاحتهم وبلاغتهم وحرصهم على معارضته؛ حيث يقول: "... فبنا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلي عليهم القرآن وتحدوا إليه، وملئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله... وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلا على وجه من الوجوه"(١)، وذلك يؤدي إلى نتيجة حتمية مفادها أنه "إذا رأينا الأحوال والأقوال منهم قد شهدت كالذي بان باستسلامهم للعجز وعلمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويقدرون عليه في ضروب النظم وأنواع التصرف، فإنّه الفوت الذي لا ينال والرقي إلى حيث لا تطمح الآمال، فقد وجب القطع بأنه معجز"(٢).

وفي كتابه الموسوم بـ (دلائل الإعجاز) يطرح الشيخ سؤاله المنطقي المترتب على تلك النتيجة التي قررها في (الرسالة الشافية)، هذا السؤال هو: عن ماذا عجزوا؟ ليصل إلى الجواب الشافي، وهو أنّ الذي أعجز القوم في القرآن الكريم إنما هي "مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيهِ ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، ويرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق. بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي

(١) الرسالة الشافية في الإعجاز: صـ٢٨ وما بعدها، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
(٢) السابق: صـ٤٢.

وتقول، وخلدت القروم، فلم تملك أن تصول"[١]. وبذلك يفضي عبد القاهر إلى طرح نظريته الشهيرة في النظم، في الوقت الذي يبلور فيه رؤيته في قضية الإعجاز القرآني.

والنّظم عند عبد القاهر هو عبارة عن: "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[٢]، وقد شرح الجرجانيّ مسألة "التعليق" بقوله: "الكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، لا تخرج عن ثلاثة، هي: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما...[٣]"، كما بيّن ارتباط فكرة (النظم) بنظام النحو حيث قال: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك على الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"[٤]، موضحًا هذه الفكرة بقوله: "ولست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي"[٥]، فالنحو –لا شك– هو الركيزة الأساسية التي ترتكز عليها المعاني في تشكيلها وبلورتها، و"من وظائف النحو الرئيسة –إن لم تكن هذه وظيفته الرئيسة– أن يعيّن لنا ترابط أجزاء النصّ، وأنْ يحدد بأيّ كلمة أو جملة أو عبارة تتصل هذه الكلمة، أو هذه الجملة، أو هذه العبارة، داخل توالي أو تتابع وحدات النص"[٦]، ومن ثمّ كانت معاني النحو هي

(١) دلائل الإعجاز: صـ٣٩. تح. د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
(٢) السابق: ص١٣.
(٣) دلائل الإعجاز: صـ١٣. تح. محمد التنجي.
(٤) السابق: ص٧٧.
(٥) السابق: ص٧٨.
(٦) الإبهام في شعر الحداثة العوامل والمظاهر وآليات التأويل، د. عبد الرحمن محمد القعود: ٢٦٢، ط. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٢٧٩، ذو الحجة ١٤٢٢هـ/ مارس ٢٠٠٢م.

الأساس الذي بنا عليه عبد القاهر الجرجاني نظريته الرائدة في (النظم)، فما النظم عند عبد القاهر إلا "توخِّي معاني النحو في معاني الكلم"(١)، و"معلومٌ أنْ ليسَ النظمُ سِوى تَعليقِ الكَلِمِ بعضِها ببعضٍ، وجعلِ بعضِها بسببٍ مِن بعضٍ"(٢)، ويفيض عبد القاهر في توضيح فكرته حول النظم المبنية على توخّي معاني النحو في الكلم؛ ليصل من كلّ هذه المقدّمات إلى بيت القصيد، وهو "أنّ طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه، ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنّها معدنه وموضعه ومكانه، وأنّه لا مستنبط له سواها، وألا وجه لطلبه فيما عداها، غارٌّ نفسَه بالكاذب من الطمع، ومسلمٌ لها إلى الخُدَع"(٣). ويمكن للباحث الوقوف على أهم المعالم في رؤية الإمام عبد القاهر الجرجانيّ حول قضية الإعجاز القرآني، وذلك فيما يلي:

معالم الرؤية عند عبد القاهر

١.الانتقال بالفكرة من الدينيّ إلى العقليّ

انطلقت رؤية الإمام عبد القاهر حول قضية الإعجاز القرآني من منطلقين أساسيين: أحدهما، أنّ القرآن كلام الله المعجز، وهذا يقتضي الإيمان بالله وبصفاته، ولا شك في أنّ الإيمان شأن ديني. والثاني، أنّ الإعجاز مردّه إلى النظم، وهذا يقتضي وجود معيار متدرّج لتقييم الكلام وتصنيفه والحكم عليه، ومن خلال هذا المعيار يتم إثبات أنّ الكلام يمكن أن يعلو ويتدرج في العلو إلى درجات لا حدود لها، ومن ثمّ تُفضي نتيجة تحليل الكلام من خلال هذا المعيار إلى الحكم عليه بالجودة أو بالرداءة، ثم إلى قياس مستواه في الجودة ومداه فيها، ثمّ إلى الحكم للكلام المتفرّد الذي لا يُجارَى نظمه، ولا يُبلغ شأوه، ولا يُطمع في معارضته أو الإتيان بمثله بالإعجاز، وهذا

(١) دلائل الإعجاز: ص٢٧٣.
(٢) السابق: ص١٣.
(٣) دلائل الإعجاز: ص٣٨٢.

الأمر يقتضي حكمًا عقليًّا منطقيًّا مبنيًّا على معايير علمية ثابتة وواضحة، "ولأن هذا المعيار لم يكن موجودًا من قبل، مثّل ذلك تحديًا كبيرًا أمام الشيخ عبد القاهر، كانت نتيجته تصدّيه لإنجاز هذا المعيار، وهو ما تمثل في طرحه لنظريته في النظم"(١).

كانت فكرة الإعجاز قبل عبد القاهر دائرة في فلك دينيّ خالص عند الذين جعلوا الإعجاز في الصرفة؛ وذلك لأنهم عزوا القضية إلى الإيمان بالقدرة الإلهية التي صرفت المعارضين، أمّا الذين جعلوا الإعجاز في النظم قبل عبد القاهر فإنهم وإن كانوا قد عزوا القضية إلى الجانب اللغوي، إلا أنهم لم يرتكزوا على أسس عقلية واضحة ومعايير علمية صحيحة يمكن أن تقاس عندها النصوص حتى يمكن إثبات علو نصّ إلى حد الإعجاز، وحتى يتم التفريق بين نص معجز وآخر غير معجز؛ فقد "ارتكز مفهوم النظم في الفترة السابقة على عصر الشيخ عبد القاهر إمّا على الذائقة اللغوية الذاتية، أو على مجرد الإيمان المباشر بأنّ القرآن معجز في نظمه"(٢)، ومن ثم تشكلت رؤية عبد القاهر في بلورة قضية الإعجاز من خلال منظورين: أحدهما ديني، والآخر عقلي:

والمنظور الأول وضّح أبعاده الجرجاني وعالجه مفصّلا في مؤلفه الموسوم بـ(الرسالة الشافية) من خلال قضية إيمانية تتّسم بنيتها بالآتي: "أولا، أنّ القرآن قد تحدى العرب أن يأتوا بمثله، ثانيًا، أنّ العرب كانوا على درجة عالية من الفصاحة اللغوية، ثالثًا، أنهم أدركوا أن لغة القرآن تعلو على لغة العرب، رابعًا، أنهم كانوا حريصين على تحدي القرآن وإثبات أنهم يستطيعون أن يجاروه في البلاغة والفصاحة، خامسًا، أنهم رغم حرصهم

(١) نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية (الجزء الأول)، د. سمير أبو زيد، مجلة (المواقف) للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، الجزائر، العدد الأول: ديسمبر ٢٠٠٧م، ص٤٥.

(٢) منهج التجديد الديني عند عبد القاهر الجرجاني، د. سمير أبو زيد، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد ٣٦، صـ١٦٤.

على تحدي القرآن فشلوا في ذلك. ولذا وجب القطع بأن القرآن معجز في نظمه"[١]. وبحسب د. سمير أبو زيد فإنّ "كلمة "الشافية" تعني "اليقينية"، ويكون معنى العنوان هو "الرسالة التي تفيد اليقين في الإعجاز"، ويكون موضوعها هو القضية الإيمانية اليقينية في الإعجاز"[٢]. ولتأكيد البعد الديني في الرسالة الشافية استخدم عبد القاهر وسيلتين هما[٣]: دلائل الأحوال، ودلائل الأقوال، أمّا الأول فيتمثل في أنّ الإنسان من طبعه إذا تحدي إلى شيء هو من جنس مايملك ومن نوع ما يتباهى به ويتفاخر أن يرد أو يحاور، ومن الثاني حديث الوليد ابن المغيرة الشهير عن علو القرآن الكريم وارتفاعه وتفرده عن غيره من الكلام[٤]. أمّا عن أسلوب عبد القاهر في معالجة بنية هذه القضية فيذكر د. حفني شرف أنّ الرجل "ذكر ذلك على صورة اعتراضات، وتوهّم أنّ تلك أسئلة، فبدأ يناقشها من أطرافها، ويلم بها من جميع نواحيها، ثمّ يأتي رده عليها وتعقيبه في ثناياها مصورًا بريشة أديب حاذق ومسلم غيور"[٥].

والمنظور الآخر (العقليّ) الذي شكّل رؤية عبد القاهر حول الإعجاز وضّح أبعاده الجرجاني وشكّل زاواياه وأطّر أطره في مؤلفه الموسوم بـ(دلائل الإعجاز)، وهذا واضح في عنوان الكتاب؛ ذلك أنذ "لفظ (الدلائل) يعني "الدلائل العقلية"، فيكون معنى العنوان هو "الدلائل العقلية على الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم"، وموضوعها هو القضية العقلية التي يرتكز عليها مفهوم الإعجاز، وهي مفهوم "النظم""[٦]. وقد اعتمد عبد القاهر في ذلك على

(١) السابق: ص١٦٣. وانظر الرسالة الشافية: ص ٢٨، و٤٢.
(٢) نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية: ص٢٩١.
(٣) راجع: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، د. محمد بركات أبو علي: صـ٤٥.
(٤) راجع: الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم) صـ ١٤٧.
(٥) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق: صـ٩٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
(٦) نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية: ص٢٩١.

إثبات جودة النظم القرآني، وهو ما أسماه بـــ (المزيّة)، التي من خلالها يُثبت أنّ النظم يمكن أن يرتفع ويعلو إلى مستوى فوق طاقة البشر، "وذلـــك أنـــه لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر وتقصر قـــوى نظـــرهم عنها"[1]؛ ومن ثمّ كان تناول الإمام للقضية في الدلائل تناولًا عقلياً، اســـتهل فيه بطرح قضية جوهرية، هي غياب المفهوم الواضح لجودة اللغـــة لـــدى السابقين، مؤكداً على عدة أمور منها: أنّه لا يكفي العلم بقواعد اللغـــة فـــي تفاضل الكلام بعضه عن بعض، فثمّة عناصر أخر حاكمة في التفاضل، وأن الكلام يمكن أن يرتقي في جودته حتى يخرج عن قدرة البشر. فالقضـــية إذاً هي بيان الأسباب التي تؤدي إلى أن يتميز كلام عن آخر، ويعلو بعضه فوق بعض حتى يخرج عن قدرة البشر، حيث يقول رحمه الله: "لا يعلم أن هاهنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الرويّة والفكر، ولطائف مستقاها العقـــل...، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضـــل بعضـــه بعضا، وأن يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ويعز المطلـــب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، بل ويخرج عن طـــوق البشـــر"[2]. وبعـــد تفصيل وشرح وتحليل وتعليل مبني على حجج عقلية قوية وأدلـــة قياســـية منطقية نجح الشيخ نجاحًا كبيرًا في الانتقال بالقضية من الحقل الديني الـــذي بدأ الغرس فيه في (الرسالة الشافية في الإعجاز) إلى الحقل العقلـــي الـــذي استوى له فيه عوده، وأينع حصاده، وتدلّى ثمره في (دلائل الإعجاز).

٢.الخروج بالفكرة من الغموض إلى الوضوح

لا يخفى على الممارس المرتاض بتحليل النصوص واستكناه دقائقها، والوقوف على أسرار بلاغتها الكامنة في نظمها، أنّ هذا العلم من أشد العلوم خفاءً، وأكثرها دقةً غموضًا، وكان عبد القاهر في رؤيته التي انبثقت منهـــا فكرة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم مدركًا لهذا الغمـــوض إدراكًـــا تامًـــا،

(١) دلائل الإعجاز: صـــ١٩٢.

(٢) السابق: صـــ٢٤.

لا سيما أنّه لم يجد في كلام السابقين من المعرفة البلاغيّة ما يجلّي الفكرة ويبسط القول فيها، وإنما كان كلامهم لمحًا وإشاراتٍ، ومن ثمّ نجد عبد القاهر يرصد هذا الغموض، بل نجده يشكو من الترميز الذي ورثه اللاحقون من السابقين، حيث يقول: "ولم أزلْ منذُ خدمتُ العِلْمَ أنظرُ فيما قاله العلماءُ في معنى الفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ والبَراعةِ، وفي بيانِ المَغْزى من هذه العباراتِ وتفسيرِ المُرادِ بها، فأجدُ بعضَ ذلك كالرَّمز والإيماء والإشارةِ في خَفَاء، وبعضَه كالتنَّبيه على مكانِ الخبيء ليُطلبَ، ومَوضعِ الدَّفينِ لُيبحثَ عنه فُيخرجُ"(١). والحقيقة أنّ هذا الغموض كان مثار شكوى السابقين لعبد القاهر أيضًا كالإمام الخطابي، ويرى الأستاذ محمود شاكر أنّ الخطابيّ من أوائل الذين شكوا من غموض العلم البلاغي وشدة خفائه(٢).

وعلى أية حال، فإنّ عبد القاهر قد تكررت شكواه من غموض فكرة ردّ الإعجاز إلى المكوّن اللغوي ممثلا في بلاغة النظم وفصاحة اللفظ التي قال بها بعض السابقين؛ وها هو ذا الجرجانيّ ينظر في أعطاف العلوم الأخرى، فيجد جلّها متصفًا بالوضوح والانكشاف، بخلاف علم البلاغة الذي جانبه الوضوح ولازمه الإبهام، حيث يقول الشيخ: "لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلاّ وإذا تأملتَ كلامَ الأولين الذين علَّموا الناس، وجدتَ العبارةَ فيه أكثرَ من الإشارة، والتصريحَ أغلبَ من التلويح، والأمرُ في علمِ الفصاحة بالضدِّ من هذا. فإنك إذا قرأتَ ما قاله العلماءُ فيه وجدتَ جُلَّه أو كلَّه رمزاً ووَحْياً، وكنايةً وتعريضاً، وإيماء إلى الغرض من وجهٍ لا يفطنُ له إلاّ من غَلَغل الفكرَ وأدقَّ النظرَ، ومن يرجعْ من طبعه إلى ألمعيةٍ يَقْوى معها على الغامض، ويصلُ بها إلى الخفي، حتى كأن بسلاً حراماً أن تتجلَّى معانيهم

(١) دلائل الإعجاز: صـ٤٦. تح. محمد التنجي.

(٢) مداخل إلى إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر: ص٩٧-٩٩.

سافرةَ الأوجه لا نقابَ له، وباديةَ الصَّفحةِ لا حجابَ دونَهـا، وحتـى كـأنَ الإِفصاحَ بها حرامٌ، وذِكرَها إلاّ على سبيل الكناية والتعريض غيرُ سائغ"(١).

ولم يكتف عبد القاهر بهذا الحكم العام، وإنما ساق عددًا من العبارات المسكوكة، والتعابير الجاهزة التي كان الأقدمون يحكمون بها على الكـلام، من ذلك مثلًا: "أنك تراهُم يقولون إذا هم تكلَّموا في مزيَةِ كلامٍ على كلامٍ: إنَّ ذلك يكون بجزالةِ اللفظ. وإذا تكلموا في زيادةِ نظمٍ على نظم: إن ذلك يكونُ لوقوعه على طريقةٍ مخصوصةٍ وعلى وجْهٍ دونَ وجه. ثم لا تجدُهم يفسِّرون الجزالةَ بشيء، ويقولون في المرادِ بالطريقةِ والوجهِ ما يَحلَى منـه السـامعُ بطائل"(٢)، ولم يكن عبد القاهر مسفّهًا لآراء الأقدمين، ولا مقللا مـن جهـد السابقين، بل التمس لهم العذر، معللا هذا الغموض بعلو النمط المعجز الذي يُحتاج في فهمه إلى فطنة المتلقي وعلو طبقته، فهو يقول: "ولم يكـن هـذا الاشتباهُ وهذا الغلطُ إلاَّ لأنه ليس في جُملة الخفايا والمشكلاتِ أغربُ مـذهباً في الغموض ولا أعجب شأناً من هذه التي نحنُ بصَددها ولا أكثرُ تَفَلُّتاً مـنَ الفهمِ وانْسلالاً منها. وأنّ الذي قاله العلماءُ والبُلغاءُ في صفتِها والإِخبارِ عنها رموزٌ لا يفهمُها إلاَّ مَنْ هُوَ في مثلِ حالِهم مِنْ لُطفِ الطبعِ ومَنْ هـو مهَيَّـأ لفهمِ تلك الإِشاراتِ، حتى كأنَّ تلكَ الطباعَ اللطيفةَ وتلك القَرائح والأذهانَ قد تَواضعتْ فيما بينها على ما سبيلُه سـبيلُ التَّرجمـة يتواطـأُ عليهـا قـومٌ فلا تَعْدُوْهم ولا يعرِفُها منْ ليسَ مِنْهم، وليتَ شِعْري مِنْ أينَ لمن لَمْ يتعبْ في هذا الشأن ولم يمارسْه ولم يوفِّرْ عنايتَه عليه أن ينظرَ إلى قولِ الجاحظِ وهو يذكر إعجازَ القرآن: "ولو أن رجلاً قرأ على رجلٍ منْ خُطبـائهم وبلغـائهم سورةً قصيرةً أو طويلةً لتبيَّنَ له في نظامِها ومَخْرجها منْ لفظِها وطابَعِها أنه عاجزٌ عن مثلِها ولو تَحدَّى بها أَبْلَغَ العربِ لأظهرَ عجزَه عنها"(٣).

(١) دلائل الإعجاز: صـ٣٣٠.
(٢) السابق: صـ٣٣١.
(٣) السابق: صـ١٩٣، ٢٩١.

وهنا ندرك أنّ عبد القاهر قد وضع يده فعلًا على موطن الداء، وشخّص المشكلة، وما كان عليه إلا أن يجد العلاج، ويأتي بالحل، وحريّ به أن يفعل، لأنّ أول الدواء معرفة الداء، ومن ثمّ اضطلع عبد القاهر بمسؤولية إعادة النظر في رؤية السابقين المكتنفة بالغموض، فألزم نفسه أن يشق طريقًا جديدًا ينقل فيه فكرة النظم الذي هو لبّ الإعجاز من الخفاء إلى الجلاء، ومن الغموض إلى الوضوح، ومن الإجمال إلى التفصيل، ومن الكناية إلى التصريح، ومن العبارات الجاهزة إلى التحليل العميق والتفسير المعلل، فجاءت رؤيته في بيان وجه الإعجاز واضحة وموضحة، فإذا كان وجه الإعجاز هو البلاغة والنظم، فلا ينبغي أن تطلق العبارات هكذا دون تفصيل وتحليل وتعليل، وأخذ الرجل على عاتقه توضيح ما أبهم، وفتح ما أغلق، وطرح المسكوت عنه حتى تتضح فكرته، فتكلم عن فروق في النظم، وفروق في الخبر، وفروق في الإثبات، وفروق في الحال..إلخ، وكان رضي الله عنه معنيا ببيان هذه الفروق واضحة ومفصلة.

ولأنّ الانتقال بالفكرة من الغموض إلى الوضوح كان شغل عبد القاهر الشاغل وهمّه الذي أهمه، كان تركيز الإمام على بيان الصعوبة والغموض قبل الولوج إلى التوضيح في كثير من المواضع التي بحثها، فعلى سبيل المثال، في حديثه عن الفرق بين جملة الحال مع الواو وبدونها، يقول: "وإذْ قد رأيتَ الجملَ الواقعةَ حالاً قد اختلفَ بها الحالُ هذا الاختلافَ الظاهرَ فلا بُدْ من أن يكونَ ذلك إنَّما كان من أجلِ عِلَلٍ تُوجِبُه وأسبابٍ تَقْتضيه، فمحالٌ أن يكونَ هاهُنا جملةٌ لا تَصِحُّ إلاَّ مع الواوِ، وأخرى لا تَصْلُحُ فيها الواوُ، وثالثةٌ تَصْلُحُ أن تجيءَ فيها بالواو وأن تَدَعَها فلا تجيءُ بها، ثم لا يكونُ لذلك سببٌ وعلَّةٌ. وفي الوقوفِ على العِلَّة في ذلك إشكالٌ وغموضٌ؛

ذاك لأنَّ الطريقَ إليه غيرُ مسلوكٍ والجهةَ التي منها تُعْرَف غيرُ معروفة. وأنا أكتبُ لك أصلاً في الخبرِ، إذا عرفتَه انفتحَ لك وجُه العِلة في ذلك"(١).

وإذا كان بحث فروق جملة الحال مع الواو من الخفاء والصعوبة بمكان، وإذا كان غيره من البحث كذلك، فإنّ هناك ما هو أغمض وأخفى وأدق وأصعب، ألا وهو باب الفصل والوصل، حيث يقول عبد القاهر: "واعلمْ أنَّه ما من عِلْمٍ من علومِ البلاغةِ أنتَ تقولُ إنَه فيه خَفيٌّ غامضٌ ودقيقُ صَعْبٌ إلاّ وعِلْمُ هذا البابِ أغمضُ وأخفى وأدقُّ وأصعبُ. وقد قَنِعَ الناسُ فيه بأنْ يقولوا إذا رأوا جملةً قد تُرِكَ فيها العطفُ: إنَّ الكلامَ قد استؤنفَ وقُطِعَ عما قبله لا تطلبُ أنفسُهم منه زيادةً على ذلك. ولقد غَفِلوا غَفْلةً شديدةً"، ومن خلال تلك التعليقات ينبه عبد القاهر قارئه إلى أمرين: أحدهما: غموض الموضوع؛ لأنه لم يتطرق إليه أحد من قبل على هذا النحو، والثاني: أنّ عبد القاهر لم يكن يحصى ويستقري جميع النظوم، وإنما كان يضع الأصول، ويؤسس الأسس، ويعبد السبيل، فبعد التعميق في بيان الفروق بين نظم وآخر، يؤكد على أن الأمر ليس نمطًا واحدًا، وإنما هو أنماط لا حدّ لها، فإذا كان النظم مداره على معاني النحو، فإن هذه المعاني "ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها"(٢)، وسيأتي تفصيل وأمثلة من التحليل والتعليل في سمات المنهج.

وقد أشار شيخنا الدكتور أبو موسى إلى هذا المعلم في رؤية عبد القاهر، وأنّ الرجل على الرغم من شكواه من خفاء البحث في هذا الجانب وشدة غموضه إلا أنه لم يكتف بطرح الشكوى، بل إنه استفرغ الجهد وبذل الوسع في سبيل إزالة هذا الغموض، حيث يقول أبو موسى: "وقد رأيت الشيخ يتولج من مكابدة البحث في الغموض والخفاء إلى فسحة الكشف والاستنباط والإبداع وأنه ما شكى المكابدة والمشقة والاعتياص إلا رأيته بعد

(١) دلائل الإعجاز: صـ ـ١٦٨. تح. محمد التنجي.
(٢) السابق: صـ ـ ٨٢.

قليل ينشر بين يديك فصلا متسعا من فصول معرفة جديدة زحزح عنها حجبها بعد المكابدة وبذل المشقة واستفراغ الجهود وهذه الألفاظ دوارة في معجمه"[١]، وهكذا كان عبد القاهر مختلفاً ومتميزًا عن من سبقوه ممن كان شعارهم أن تمييز الإعجاز "لا تقوى عليه العبارة، ولا تملك فيه إلا الإشارة"[٢]، أو ممن كان مذهبهم التسليم بالإعجاز دونما إثبات أو برهان أو دليل.

٣.استيعاب ثنائية (اللفظ والمعنى)

لا شك أنّ النصّ القرآني الكريم موطنَ الإعجاز هو من جنس الكلام، وكل كلام يشتمل على لفظ ومعنى، وقد كانت ثنائية (اللفظ والمعنى) قبل عبد القاهر "تمثل أساساً قارّاً في كل محاولة عرفها النقد العربي القديم تبتغي تأسيس رأي في بنية النصّ الأدبي"[٣]، وإذا كانت فكرة النظم قد قال بها بعض السابقين للجرجانيّ، فإنّ تناول السابقين لهذه الفكرة لم يكن على أساسٍ من مفهوم يوحّد بين اللغة وعناصرها المختلفة، وإنما طرحت الفكرة هنالك ودرست على أساس ثنائية ترسّخت في أعماق التفكير البياني العربي هي ثنائية اللفظ والمعنى، أو إن شئت قل: ثنائية الشكل والمضمون، أمّا فكرة النظم التي جعلها عبد القاهر سبيلًا إلى الإعجاز القرآني، فإنّها لا تقوم باللفظ وحده ولا بالمعنى وحده بل بهما معاً، معلَّلة بترتيب المعاني في النفس، حيث يقول عبد القاهر: "لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها... إن قولنا (المعنى) في مثل هذا يراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه"[٤]، وذلك مرتهنًا بالوجه الذي يقتضيه العقل: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في

(١) مناهج علمائنا في بناء المعرفة: صـ ٢٠٢.
(٢) دلائل الإعجاز: صـ ٦٥.
(٣) اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، د. الأخضر جمعي: ص١٨٩.
(٤) دلائل الإعجاز: صـ ٢٠٠. تح. التنجي.

النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"(١).

نظر عبد القاهر في مواقف السابقين قبله من مسألة (اللفظ والمعنى) بوجه عام، فوجد أنّ منهم من أسرف في التعويل على اللفظ، ومنهم من أوغل في عكس هذا المذهب، فجعل مناط الحسن ومرجع الفضل مرتهناً بالمعنى، من أجل ذلك حمل عبد القاهر حملة شعواء على كلا الفريقين؛ فردّ على أنصار اللفظ فساد مذهبهم، مبيّنا أنّ اللفظة قد تكون غاية في الفصاحة في موضع وليس لها ذلك في موضع آخر؛ "لأن المزيّة التي من أجلها نصِفُ اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح مزية تحدث من بعد طلبته فيها وقد جئت بها أفرَادا لم ترم نظما ولم تحدث لها تأليفا طلبت محالًا"(٢). فلا تتفاضل الألفاظ عند عبد القاهر من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمات مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها من خلال ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. إنّ من المرتكزات التي أسس عليها عبد القاهر نظريته في النظم أنّ المعاني تتشكل في نفس المتكلم أولا، ومن ثمّ تأتي الكلمات والألفاظ التي تصور تلك المعاني (النفسية)، فيكون اختيارها وترتيبها في صورتها الملفوظة متساوقا مع منشئها في نفس المتكلم، وبحكمة بالغة ومنطق عقلي رشيد يدفع عبد القاهر وجهة نظر اللفظيين الذين قد يتصورون ترتيب عملية الكلام بشكل معكوس، فينظرون إليها من جهة الاستقبال من جهة السامع، لا من جهة الإرسال من جهة المتكلم، حيث يقول: "قد ترى أحدَهم يعتبر حالَ السامع، فإذا رأى المعاني لا تترتَّب في نفسِه إلاّ بترتُّب الألفاظِ في سمعه، ظنَّ عند ذلك أن المعاني تبعٌ للألفاظ وأن الترتُّب فيها مكتَسبٌ من الألفاظ ومن ترتُّبها في نطق المتكلم. وهذا ظنٌّ فاسد ممن يظنه فإنَّ الاعتبار ينبغي أن يكون بحالِ الواضع للكلام والمؤلِّف له. والواجبُ أن ينظرَ إلى حالِ المعاني معه لا مَعَ

(١) السابق: صـ ٥٦.

(٢) السابق: صـ ٢٩٨.

السامعِ. وإذا نظرنا عَلِمنا ضرورةً أنه مُحَالٌ أن يكونَ الترتُّبُ فيها تَبَعاً لترتُّبِ الألفاظِ ومكتَسباً عنه؛ لأن ذلك يقتضي أن تكونَ الألفاظُ سابقةً للمعاني، وأن تقعَ في نفس الإنسان أولاً ثم تقعَ المعاني من بَعْدِها وتالية لها بالعكس مما يعلمُه كلُّ عاقل إذا هو لم يأخذْ عن نفسه ولم يُضرب حجابٌ بينه وبينَ عقله"(١). ليصل عبد القاهر بعد هذا التوضيح إلى فساد مذهب أنصار اللفظ لذاته على حساب المعنى، حيث يقول: "وليتَ شعري هل كانتِ الألفاظُ إلاّ من أجل المعاني وهل هي إلاّ خدمٌ لها ومصرَّفةٌ على حكمها، أوَ ليست هي سماتٍ لها وأوضاعاً قد وضِعَتْ لتدلَّ عليها فكيفَ يُتصوَّر أن تسبِقَ المعاني وأن تتقدَّمَها في تصوُّر النفس، وإن جازَ ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وُضعتْ قبل أن عُرفتْ الأشياء وقيلَ أن كانتْ"(٢). وهذا يؤكد أنّ حُسن الألفاظ أو قبحها لدى عبد القاهر أمر نسبي؛ "فقد اتّضح إذن اتضاحًا لا يدع مجالا للشك أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر..."(٣).

كما حمل الإمام عبد القاهر على أنصار المعنى المغالين في نصرته مع عدم اعتبار قيمة للفظ، مبينًا غلطهم حين نحُّوا الألفاظ جانبًا عن مضمار الفضل والحسن، قائلًا: واعلمْ أنّ الداءَ الدَّويَّ الذي أعيا أمرُه في هذا الباب غلط مَنْ قَدَّم الشعرَ بمعناه، وأقلَّ الاحتفالَ باللفظِ وجعلَ لا يعطيه مِنَ المزيةِ إنْ هو أعطى إلا ما فَضَلَ عن المعنى، يقولُ ما في اللفظِ لولا المعنى، وهل الكلامُ إلاّ بمعناه. فأنتَ تراهُ لا يقدِّم شعراً حتى يكونَ قد أودِعَ حكمَةً أو أدباً واشتملَ على تشبيهٍ غريبٍ ومعنًى نادرٍ. فإنْ مالَ إلى اللفظِ شيئًا ورأى أنْ

(١) السابق: صـ ٣٠٧.
(٢) دلائل الإعجاز، تح. التنجي: صـ ٣٠٨.
(٣) السابق: صـ ٥٤.

ينحلَه بعضَ الفضيلة لم يعرفْ غيرَ الاستعارةِ ثم لا ينظرُ في حال تلك الاستعارةِ أحسُنَتْ بمجرَّدِ كونِها استعارةً؟ أم من أجلِ فَرْقٍ ووجهٍ؟ أم للأمرين؟ لا يَحْفِلُ بهذا وشبهِهِ، قد قَنِعَ بظواهرِ الأمور وبالجملِ وبأنْ يكونَ كمن يجلُبُ المتاعَ للبيعِ إنما همُّه أن يروِّجَ عنه"(١). مبيناً خطر توجههم الذي قد يؤدي بهم إلى إنكار الإعجاز القرآني من حيث لا يشعرون، حيث يقول الإمام: "واعلمْ أنَّهم لم يبلغوا في إنكارِ هذا المذهب ما بلغوه إلاّ لأنَّ الخطأ فيه عظيمٌ، وأنه يُفْضِي بصاحبه إلى أنْ ينكرِ الإعجازَ ويُبطلَ التَحدِّي من حيث لا يشعرُ. وذلك أنه إنْ كان العملُ على ما يذهبون إليه من أن لا يجب فضلٌ ومزيّةٌ إلاّ من جانِبِ المعنى وحتى يكونَ قد قالَ حكمةً أو أدباً واستخرجَ معنًى غريباً أو تشبيهاً نادراً فقد وَجب اطِّراحِ جميعِ ما قاله الناسُ في الفصاحةِ والبلاغةِ وفي شأن النظمِ والتأليفِ. وبَطَلَ أن يجبَ بالنظم فضلٌ وأنْ تدخلَه المزيةُ وأن تتفاوتَ فيه المنازلُ. وإذا بطَلَ ذلك فقد بطَل أنْ يكونَ في الكلامِ مُعجزٌ"(٢).

لقد كانت نظرة عبد القاهر إلى ثنائية اللفظ والمعنى متوازنة، فما دام الكلام هو فعل الفكر أساسًا وما دام منشؤه في النفس أصلًا، فإنّ الفصاحة والبلاغة والفضل والمزية كل ذلك مرتهن بالمعاني التي تستطيع الألفاظ تشكيل صورتها وفق تفاعلها في النفس وحسب اعتمالها في الفكر، ومعلوم "أن الفكر من الإنسان يكون في أن يخبر عن شيء بشيء، أو يصف شيئاً بشيء، أو يضيف شيئاً إلى شيء، أو يشرك شيئاً في حكم شيء، أو يخرج شيئاً من حكم قد سبق منه لشيء، أو يجعل وجود شيء شرطاً في وجود شيء، وعلى هذا السبيل. وهذا كله فِكَرٌ في أمور معلومة معقولة زائدة على اللفظ"(٣)، ومن هنا فالمعاني هي الحاكمة، والألفاظ لها تبع، وكل وصف للفظ بالمزية والفضل والحسن إنما يتأتى تبعا لموقعه في الكلام لا لذاته، حيث

(١) السابق: صـ ١٩٤.
(٢) دلائل الإعجاز، تح. التنجي: ص١٩٩.
(٣) السابق: صـ ٣٠٧.

يقول عبد القاهر: "لو كانت المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها، لكان محالاً أن تتغيَّر المعاني والألفاظ بحالها لم تزل عن ترتيبها، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغيير من غير أن تتغير الألفاظ وتزول عن أماكنها علمنا أن الألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة"(١)، وبناءً على ما تقدم فلا فضل إذا للألفاظ في ذاتها من حيث اشتمالها على خصائص صوتية كالجناس أو السجع مثلًا، وعلى هذا الأساس "فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه"(٢). وهكذا يقرر عبد القاهر في وضوح أن لا فضل للفظ في ذاته على معنى، وفي المقابل لا مزيّة لمعنى تشكّل في صورة لفظية غير مطابقة لما لشكله في النفس.

٤.الارتقاء بالفكرة إلى مستوى النظرية العامة

ارتقت فكرة النظم لدى عبد القاهر لتكوّن نظرية متكاملة الأركان، ولتعالج كافة الصياغات، ولتبحث عن الإمكانات المتنوعة للتصميم اللغوي على صعيد النصّ في تقاطعاته مع السياقات المختلفة، وعلى صعيد الجملة في استئناسها بالأنساق المتنوعة، وذلك هو عين (التعلّق) الذي هو لب النظرية ونواتها المركزية، حيث يقول عبد القاهر: "معلومٌ أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"(٣). والحقيقة أنّ ما توصل إليه عبد القاهر من خلال نظريته في النظم لا يختص بنمط من القول دون آخر كما لا يختص بلغة إنسانية دون أخرى، ومن ثمّ كانت نظريته عالميّة(٤)، وقد أشار الإمام إلى عموم نظريته وشمولها في أكثر من موضع، فعندما بيّن أنّ الفصاحة إنما تكون في المعاني لا في الألفاظ من حيث هي ألفاظ قال: "وكيف لا يكون في إسار الأخذة ومحولا

(١) السابق: صـ ٢٨١.

(٢) أسرار البلاغة: صـ ١١.

(٣) دلائل الإعجاز: صـ١٣.

(٤) انظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية (الجزء الأول)، د. سمير أبو زيد: صـ ٤٨.

بينه وبين الفكرة من يسلم أن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، وأنها إنما تكون فيها إذا ضم بعضها إلى بعض، ثم لا يعلم أن ذلك يقتضي أن تكون وصفا لها، من أجل معانيها لا من أجل نفسها، ومن حيث هي ألفاظ ونطق لسان؟"(١). وإذا تأملنا قوله رضي الله عنه: "ونطق لسان" ولاحظنا تنكير (لسان) أدركنا معنى العموم وعرفنا أنّ الرجل يعنى أنّ هذا الحكم وتلك القاعدة لا يستأثر بها لسان دون لسان ولا تنفرد بها لغة دون لغة. وأيضًا عندما تحدث عبد القاهر عن المفيد من الاستعارة ذكر صراحة أنّ أساسيات تركيب الكلام تشترك فيها جميع اللغات وليست قاصرة على اللغة العربية وحدها حيث قال: "فإن الكثير منه (يعني المفيد من الاستعارة) شرك في عداد ما يشترك فيه أجيال الناس، ويجري به العرف في جميع اللغات.. فلا يمكن أن يدعي أنا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة، فقد عمدنا إلى طريقة في المعقولات لا يعرفها غير العرب، أو لم تتفق لمن سواهم، لأن ذلك بمنزلة أن تقول إن تركيب الكلام من الاسمين، أو من الفعل والاسم، يختص بلغة العرب.. وذلك مما لا يخفى فساده"(٢).

لقد استطاع الإمام عبد القاهر بل أبدع في الانتقال بقضية الإعجاز القرآني من الدينيّ الخاص إلى العقلي العام، ومن اللغوي المحدود المتمثّل في نمط معيّن من أنماط اللغة كالمجاز وغيره، إلى اللغوي العام؛ ليؤسس نظرية كليّة متكاملة يقوم الإعجاز فيها على النظم المتفرّد في إطار النظام العام للغة، وبذلك يتوصّل عبد القاهر إلى معيار عام وشامل للحكم على القول، في الوقت ذاته الذي يؤسس فيه منهجاً علميًّا وعقلياً لتقييم نصوص كلام العرب في مقابل النصّ القرآني الكريم، من أجل إثبات أن جودة الكلام يمكن أن تعلو إلى درجة لا حدود لها حتى تصل إلى حدّ الإعجاز.

(١) دلائل الإعجاز: صـ ٣٣٧.

(٢) أسرار البلاغة: صـ٣٤.

المبحث الثاني
منهج الجرجانيّ في دراسة الإعجاز القرآنيّ

توطئة

المنهج: مصدر ميمي معناه الطريق، وهو كالنهج، قال ابن فارس: "النَّهْج، الطّريق. ونَهَج لي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مُستقيم المِنْهاج. والمَنْهج: الطَّريق أيضاً، والجمع المناهج"(١)، وفي لسان العرب "وسبيلٌ مَنْهَجٌ كَنَهْجٍ، ومَنْهَجُ الطريق وضَحُه، والمِنهاجُ كالمَنْهَجِ، وفي التنزيل ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومِنْهاجاً﴾(٢) وأَنهَجَ الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً"(٣). والمنهج بوجه عام كما جاء في المعجم الوسيط، هو: "وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة "(٤)، أو كما يقول د. أحمد مطلوب: "هو الأسلوب الذي يقود إلى هدف معين في البحث والتأليف أو السلوك"(٥). فالمنهج إذن له استعمالان: أحدهما حسيّ، حيث يطلق على سلوك السبيل الواضح والطريق المستقيم والسير عليه، والآخر معنويّ، حين يطلق على الخطة العلمية المحددة، التي يتبعها الدارس، ويلتزم بها، ويقف على أسسها وقواعدها.

أمّا في الاصطلاح فقد ذكر علماء مناهج البحث عدة تعريفات للمنهج، منها أنّه عبارة عن "طرق البحث واجراءاته في مجال معرفي"(٦)، ومنها أنه "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"(٧)، ولعلّ أكثرها شمولًا تعريفه بأنّه "الطريقة التي يتبعها

(١) معجم مقاييس اللغة: ٤٨٣/٥.
(٢) سورة المائدة: آية ٤٨.
(٣) لسان العرب: ٣٠٠/١٤.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩م، ج٢، مادة نهج.
(٥) معجم النقد العربي القديم١٢٥.
(٦) مدخل إلى المنهجية في العلوم الاجتماعية، فارس إشتي، مجلة العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، بيروت، العدد الأول، المجلد الأول، ص٣١.
(٧) مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي: ص٥. وكالة المطبوعات، الكويت، ط٣، ١٩٧٧م.

الباحث في دراسته للمشكلة؛ لاكتشاف الحقيقة، أو هو خطوات منظمة يتبعها الباحث في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراستها"[١]، ويراد بمناهج البحث أو الدراسة: "الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل، والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض"[٢]، "ومن الأسس التي تقوم عليها مناهج البحث تلك الخطوات العملية التي تؤدي إلى أدلة ذهنية أو مادية في الوصول إلى الحقيقة. فلكل منهج خطواته وأدواته التي قد يستعين بها من يسير على منهج آخر، ما دامت توصل إلى الحقيقة، وهي الضالة المنشودة لكل منهج يتطلع إلى السداد والصواب"[٣].

والمنهج قد يكون مرسومًا من قبل بطريقة تأملية مقصودة، وقد يكون نوعا من السير الطبيعي للعقل لم تحدد أصوله سابقا، ذلك أنّ الإنسان في تفكيره قد ينظم أفكاره ويرتبها فيما بينها حتى تتأدى إلى المطلوب على أيسر وجه وأحسنه على نحو طبيعي تلقائي ليس فيه تحديد ولا تأمل ولا قواعد معلومة من قبل، فهذا منهج أيضا، ولكنه منهج تلقائي"[٤]. ولا يخفى أهمية دراسة المناهج والتعرف عليها، فالمنهج يبرز مستوى النضوج العلمي والفكري والتطور الذهني للعقلية الإنسانية في تعاملها مع العلوم، كما أنّ دراسة المنهج تكشف شخصية المؤلف في تناول العلوم مما يتيح الإفادة من فكره لمن بعده، فمن أهمية دراسة المنهج بلورة الجهود المبذولة وتقديمها لطلاب العلم في صورة واضحة يمكن الإفادة منها لاحقا، هذا فضلا عن أن معرفة المناهج فيه فرصة لتقييم العلوم وتقييم المسائل العلم والنظر إليها بشكل جديد وإعادة صياغتها من جديد.

(١) السابق: ص٤، ٥.

(٢) علم اللغة، علي عبد الواحد وافي: ص٣٣، دار نهضة مصر، ط٧، ١٩٧٢م.

(٣) المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايره: ص٨،٧.

(٤) السابق: ص٥.

ومن نافلة القول أنّه ممّا أغرى الباحث بدراسة موضوع المنهج عند عبد القاهر تحديدًا ما ذكره الدكتور محمد بركات في مقدمة بحثه الموسوم بـ (معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني)، حيث قال: "ولا يستطيع باحث منصف أن يقطع في إنهاء الدراسة حول المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، وإنما تبقى الدراسات قائمة بتجدد الثقافة وتنوع الوسائل المعرفية، وتشوق الباحثين للاتصال بصورة من صور تراثهم البلاغيّ، والتعرف إلى تدرج التفكير البلاغي عند العرب"(١). أمّا عن منهج الجرجانيّ في دراسة الإعجاز القرآنيّ، وفي سبيل التوصّل إلى نظريته في النظم، فإنّه يرتكز على عدة مرتكزات، كما أنّه يتّسم بعدة سمات، وفيما يلي تفصيل ذينك المطلبين:

المطلب الأول: مرتكزات المنهج ودعائمُه

يلحظ الباحث أنّ طريقة الشيخ عبد القاهر التي سلكها لإثبات رؤيته في الإعجاز القرآني وتقرير فكرته حول النظم ترتكز على أساسين اثنين: الأول، التدرّج في بناء الفكرة، وتكامُل تآليف الشيخ نحو بلورتها. والثاني، أنّ البحث لديه كان في دلائل الإعجاز، لا في كنهه وعلته. تفصيل ذلك فيما يلي:

أولًا: التدرّج في بناء الفكرة، وتكامُل التآليف في بلورتها

أشار البحث في التمهيد إلى أنّ مؤلفات عبد القاهر المتّصلة بالدراسات القرآنية اتّصالًا مباشرًا كثيرة، غير أنه لم يصلنا منها إلا (الرسالة الشافية في الإعجاز)، وأمّا مؤلفاه (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) فيحسب بعض الباحثين أنّ الشيخ قصد بتأليفهما تشييد علم البلاغة وإرساء قواعده، على أساس أنّ (دلائل الإعجاز) اختص بعلم المعاني، و(أسرار البلاغة) اختص بعلم البيان؛ حيث يقول د. شوقي ضيف: "لعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ

(١) معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني (سلسلة الدراسات البلاغية)، د. محمد بركات حمدي أبو علي: صـ١٠، دار الفكر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

البلاغة، إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً، أمّا النظريّة الأولى فخصّ بعرضها وتفصيلها كتابه "دلائل الإعجاز"، وأمّا النظريّة الثانية فخصّ بها وبمباحثها كتابه "أسرار البلاغة""[1]، كما يرى د. أحمد مطلوب أنّ عبد القاهر لم يؤلف (أسرار البلاغة) لغرض ديني أو مسألة تتعلق بالإعجاز، وإنما ألفه لوضع الأصول والقوانين وبيان الأقسام وذكر الفروق بين العبارات والفنون البيانية[2]، إلا أنّ هذا البحث يتوجّه وجهةً أخرى، حيث يزعم الباحث أنّ مؤلفات عبد القاهر الثلاثة: (الرسالة الشافية في الإعجاز)، و(أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) قائمة على معالجة قضية الإعجاز، سواء منها ما كان متصّلا بهذه القضية اتصالا مباشر كـ(الرسالة الشافية في الإعجاز)، و(دلائل الإعجاز)، أو لم يكن كذلك كـ(أسرار البلاغة)، وسواء منها ما كان خالصًا للقضية كالرسالة، أو كان متضمنّا إرساء علم البلاغة كما ارتأى الدكتور شوقي ضيف وغيره من الباحثين في كتابي عبد القاهر: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز".

يزعم الباحث أنّ معالجة فكرة الإعجاز لم يخصها عبد القاهر بمؤلف دون آخر، بل إنها كانت محطّ نظره ومحل دراسته في مؤلفاته كلها المتّصلة بالبلاغة والإعجاز، على الأقل في ثلاثة المؤلفات التي وصلت إلينا، ويزعُم الباحثُ أيضًا أنّ الإمام عبد القاهر الجرجانيّ لم يشأ أن يطرح فكرته حول وجه الإعجاز إلا بعد أن يُمهّد لهذه الفكرة ويؤسّسَ لبنائها؛ ومن ثمّ جاء إيغاله فيها برفق عجيب، وتناوله لها شيئًا فشيئًا بتأنٍّ محسوب وتمهّل مدروس. أقول: في تصوري أنّ الجرجانيّ كان ممتلئاً بفكرته التي عزى فيها إعجاز القرآن الكريم إلى المكوّن اللغوي (النظم)، لكنّه لم يشأ أن يدخل إلى دراسة هذه الفكرة مباشرة دون التمهيد لها، وإذا كانت غاية الجرجاني قد تحققت في كتابه (دلائل الإعجاز) من خلال إرساء نظريته في النظم، فإنّ

(١) البلاغة تطوّر وتاريخ: صـ١٦٠. دار المعارف ـ ط٨ ـ ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده: ٣٨.

هذه الغاية قد تدّرج الشيخ وتمهّل في سبيل الوصول إليها، من خلال مؤلفيه: (الرسالة الشافية) أولا، ثمّ (أسرار البلاغة) بعد ذلك، وربما كان الرجل ينسج خيوط فكرته من خلال تأليفه لـ(الرسالة) و(الأسرار) لينسج عليها لاحقاً فكرته الأم في دلائل الإعجاز.

ولنبدأ بإماطة اللثام عن العلاقة بين (الرسالة الشافية في الإعجاز) وبين (دلائل الإعجاز) بطرح هذا السؤال: لمَ عمد عبد القاهر إلى تحرير مصنّفين مستقلين في موضوع واحد هو الإعجاز؟ أما كان يغني أحدهما عن الآخر؟ وقد أجاب عن هذا السؤال الباحث د. سمير أبو زيد[١]، الذي خلص إلى أنّ (الرسالة الشافية) تناول الجرجاني فيها الإعجاز القرآني من منظور ديني وعقدي بحت، وأنّ عبد القاهر لم يتعرّض في الرسالة الشافية لأكثر من إثبات الإعجاز البياني للقرآن الكريم في حد ذاته من وجهة نظر إيمانية، مع مناقشة وتفنيد الآراء المخالفة كالقول بالصرفة وغيرها، وهو بذلك يؤسس للحديث فيما بعد عن دلائل ذلك الإعجاز، المتمثل في النظم والتأليف. كان حديث الشيخ عبد القاهر في الرسالة جمعاء عن الأحوال والأقوال الدالة على عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم، الأمر الذي يؤكد إعجازه لهم ولغيرهم بالضرورة، ولم يضمن رسالته شيئًا من وجوه الإعجاز، وإنما تناول تلك الوجوه في كتابه (دلائل الإعجاز)، حيث قرر أنّ إعجاز القرآن في نظمه، وليس في شيء من دون ذلك. ويتفق الباحث مع ما ذهب إليه د. حفني محمد شرف من أنّ عبد القاهر أكمل في الـ(دلائل) ما بدأه في (الرسالة الشافية)، حيث يقول: "إننا نلتقي به في كتابه (دلائل الإعجاز) حيث يكمل فيه ما بدأه هناك"[٢]، فعبد القاهر في الدلائل يطوّر فكرته التي ابتدأها في (الرسالة الشافية)، وينتقل بها من العام المتمثل في إثبات الإعجاز البياني

(١) انظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية: ص٢٩١.
(٢) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق: صـ ٩٦.

للقرآن الكريم، إلى الخاص المتمثل في ردّ الإعجاز البياني إلى النظم والتأليف والترتيب.

وإذا كان كتاب عبد القاهر (دلائل الإعجاز) في صميم الإعجاز، فإنّ الباحث يزعم أنّ كتابه (أسرار البلاغة) بمثابة المقدمة أو التمهيد للدلائل، ذلك أنّ (أسرار البلاغة) تضمّن مفهوم المجاز وما يدور في فلكه، أو إن شئت قل: إنه ركّز على الجانب الخيالي في اللغة[1]، وقد فصّل عبد القاهر الحديث في كتابه (أسرار البلاغة) حول هذا الجانب من اللغة لينطلق منه وليبني عليه في كتابه (دلائل الإعجاز)، فها هو ذا الشيخ في مقدمة الدلائل وقبل الاستفاضة في بناء نظريته في النظم يؤكد على أنّ مفهوم النظم الكليّ الشامل لجميع الاعتبارات الممكنة في بناء القول حسب نظام النحو يختلف عن الاعتبارات المحدودة كالمجاز والاستعارة، وعبد القاهر ينطلق من هذا المنطلق في مقدّمة (الدلائل) ليدحض النظريات اللغوية الجزئية المحدودة حول الإعجاز، ومنها كون الإعجاز في (الاستعارة) مثلًا، فتراه ثمة يقول: "فإذا بَطَلَ أن يكونَ الوصْفُ الذي أعجزَهم من القرآنِ في شيءٍ ممّا عدَدْناه لم يبقَ إلاّ أن يكونَ في الاستعارة. ولا يمكنُ أن تجعلَ الاستعارة الأصل في الإعجاز وأن يُقْصَرَ عليها؛ لأن ذلك يؤدي إلى أنْ يكونَ الإعجازُ في آيٍ معدودةٍ، في مواضعَ من السورِ الطوالِ مخصوصةٍ. وإذا امتنعَ ذلك فيها لم يبقَ إلا أن يكونَ في النظم والتأليفِ لأنه ليس من بَعدِ ما أبطلنا أن يكونَ فيه إلا النظمُ. وإذًا ثبت أنه في النظمِ"[2]، إذ النظم هو العلم بالكيفية وبالقواعد التي تحكم تعلق الكلم ببعضها البعض، والتي تحكم أسباب هذه العلاقات، ومن ثمّ فإنّ تقدير جودة النظم من عدمه لا يتأتى أن يرتبط بشعور ذاتي أو إحساس خيالي، وإنما بأسباب محددة خاصة بعلاقات الكلم، وما المجاز سوى علاقات بين المعاني، فهو داخل في إطار النظم الذي يعني بناء

(١) انظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية: صـ٢٨٦.
(٢) دلائل الإعجاز: صـ٢٩٢.

المعنى، سواء كان هذا المعنى حقيقيًا أم كان مجازيًّا، وقد أكد عبد القاهر على أنّ المزية في المجاز ليست في الألفاظ المجازية ذاتها، وإنما في العلاقة المعنوية الناشئة عن النظم، تلك العلاقة التي يترتب عليها أنّ الكناية تؤكد المعنى وتقويه، والتشبيه يؤدي إلى قوة إثبات الصفة...إلخ، وتأمل قوله في دلائل الإعجاز، حيث يقول: "اعلمْ أنَّ سبيلك أوّلاً أن تعلم أنْ ليستِ المزيّةُ التي تُثبتُها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهرِه والمبالغةُ التي تدَّعي لها في أنفسِ المعاني التي يقصدُ المتكلمُ إليها بخبرِه ولكنّها في طريق إثباتِه لها وتقريرِه إيّاها. تفسيرُ هذا أنْ ليس المعنى إذا قلنا: "إنّ الكنايَة أبلغُ منَ التَّصريح أنّك لمّا كنيتَ عن المعنى زدتَ في ذاته، بل المعنى أنّك زدتَ في إثباتهِ فجعلتَه أبلغَ وآكد وأشدَّ. فليستِ المزيّةُ في قولهم: "جمُّ الرماد" أنّهُ دلَّ على قِرًى أكثرَ، بل المعنى أنك أثبتَّ له القِرى الكثيرَ من وجهٍ وهو أبلغُ. وأوجبْتَهُ إيجاباً هو أشدُّ وادَّعيته دعْوى أنتَ بها أنطقُ وبصحَّتها أوثقُ، وكذلك ليست المزيّةُ التي تراها لقولك: "رأيتُ أسداً" على قولك: "رأيتُ رجلاً لا يتميَّزُ منَ الأسد في شجاعته وجُرأته" أنّك قد أفدتَ بالأول زيادةً في مُساواته الأسدَ بل أنَّك أفدتَ تأكيداً وتشديداً وقوّة في إثباتك له هذه المساواةَ وفي تقريرِك لها. فليس تأثيرُ الاستعارةِ إذاً في ذاتِ المعنى وحقيقتِه بل في إيجابهِ والحكمِ به. وهكذا قياسُ التّمثيل ترى المزيَّةَ أبداً في ذلك تقعُ في طريقِ إثباتِ المعنى دون المعنى نفسه"(١).

وإذا كان ثمة خلاف بين الباحثين حول أسبقية (أسرار البلاغة) لـ(دلائل الإعجاز) في التأليف، فإنّ الباحث هنا يميل إلى رأي د. علي العماري الذي يرى أنّ عبد القاهر ألّف الدلائل بعد الأسرار(٢)، والباحث في

(١) السابق: صـ٦٩، ٧٠.

(٢) للدكتور علي محمد العماري أدلة يرى أنها تكاد تكون حاسمة في أنّ (أسرار البلاغة) كان سابقًا في التأليف، بخلاف د. شوقي ضيف الذي ذهب إلى القول بأنّ (دلائل الإعجاز) أسبق. انظر: واضع علوم البلاغة، للعماري، مجلة الرسالة العدد ٧٣٧ (خواطر مسجوعة)، وانظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، التاسعة ١٩٩٩م.

هذا الصدد يؤيد ما ذهب إليه العلامة الشيخ محمود شاكر من أنّ عبد القاهر قام بتأليف كتابه الـــ (دلائل) في آخر حياته، وقبل وفاته بمدّة زمنية وجيزة، وأن العجلة التي تمّ فيها تأليف الكتاب منعته من تبويبه وتصنيفه، وكأنّه كان يسابق الموت[1]. وهذا واضح في أسلوب عبد القاهر في الكتاب الذي كـــان يبدئ فيه ويعيد ليقرر نظرية النظم التي هي سرّ الإعجاز ودلائله، بعدما مهد لها من قبل في (الرسالة الشافية)، وفي (أسرار البلاغة).

أقول: إنّ المتأمّل في هذه المؤلفات الثلاثة يلحظ أنّ بعضـــها مكمّـــل لبعض، آخذٌ بعضُها بحُجز بعض، وأنّ بينها من الوشائج والعلائق ما يجعل النظرة الأحادية ربما لا تفي بتكوين صورة واضحة ومتكاملة عـــن مـــنهج الشيخ عبد القاهر في دراسة الإعجاز القرآني، بل إنّ النظرة الأحادية لهـــذه التصانيف ربما رأت تباعد ما بينها في الطرح، والمطالع لتلك التصانيف كلّ مصنف على حدة لا يستطيع فهم مذهب عبد القاهر في الإعجاز، وطريقتـــه التي سلكها في تجليته وبيانه، وإنما يتأتى له ذلك إذا أمعن النظر في جميـــع نتاجه فرآه متكاملًا، ووصل تلك التصانيف بعضها ببعض، والله أعلم.

ثانياً: موضوع البحث دلائل الإعجاز لا كنهه وعلته

لم يكن عبد القاهر في خضم حديثه عن الإعجـــاز القرآنـــي معنيًـــا باكتشاف كُنه الإعجاز وعلّته، وإنما كان بحثه متوجهاً نحو شواهد الإعجاز ودلائله، والبحث في العلة يختلف عن البحث في الدليل، فالبحث في العلّـــة يؤدي إلى إدراك وجه الإعجاز وكنهه وحقيقتـــه؛ لأنّ إدراك العلّـــة يعنـــي الإحاطة بالشيء ومعرفة جوهره الخفي، أما البحث في الدليل فإنه يؤدي إلى الكشف عن وجوه البلاغة وإدراك مظاهر الإعجاز وليس حقيقته؛ فالدليل هو مظهر خارجي وأمارة ظاهرية، يقول د. عيد بلبع: "فالبحث في العلـــة هـــو بحث في سبب الوجود، أو في سبب كون الشيء في وجوده متّصـــفاً بهـــذه

(١) ينظر: مقدمة دلائل الإعجاز: ص (هـــ).

الصفة أو تلك، أو تتوفر له هذه الخاصية أو تلك، أما الدليل فهو بحث في الأسباب الظاهرية التي تجعلنا نحكم على الشيء باتصافه بصفة ما، أو نقبل الحكم على الشيء بالاتصاف بتلك الصفة، فالبحث في الدليل هو البحث في تتبع الأسباب التي ترضي وتقنع بأن هذا النص معجز، إنه بحث فيما يدعم موقف المؤمن به ويحاج غير المؤمن"(١).

وقد كان عبد القاهر واضحًا وضوحًا تامًا في بيان وجهته، وغايته من عمله، وما ارتكز عليه في منهجه، عندما عنون لكتابه الرئيس الذي طرح فيه نظريته في النظم بـ (دلائل الإعجاز)، فالدلائل شيء والعلة شيء آخر. لكن ربما أوهمت كلمة الـ(علة) التي ذكرها عبد القاهر في معرض حديثه عن علل التباين بين الأساليب أنّ الشيخ "علة الإعجاز وكنهه"، وذلك في إطار ردّه على من قال بامتناع البحث في الإعجاز، حيثّ نبّه عبد القاهر إلى أنّ مِمّن قعد عن البحث في علل التباين بين الأساليب "مَن زعمَ أنه لا سبيلَ إلى معرفةِ العِلَّةِ في قليلِ ما تُعْرَفُ المزيةُ فيه وكثيرِه، وأنْ ليس إلا أن تعلمَ أنَّ هذا التقديمَ وهذا التنكيرَ أو هذا العطْفَ أو هذا الفصْلَ حسَنٌ. وأن له موقعًا من النفسِ وحظّاً من القَبولِ. فأمّا أن تَعْلَمَ لِمَ كان كذلك؟ وما السَّببُ؟ فممَّا لا سبيلَ إليه، ولا مطمعَ في الاطِّلاعِ عليه، فهو بتوانِيه والكسلِ فيه في حكمِ مَن قالَ ذلك"(٢)، يعنى بذلك أنّ علة المزية قد لا تدرك بشكل عام في كلّ الأساليب، لكن ذلك لا ينبغي أن يكون سببًا في ترك البحث في الكل، حيث يقول: "واعلمْ أنه ليسَ إذا لم يُمكنْ معرفةُ الكلِّ وجبَ تركُ النظرِ في

(١) ينظر: مقدمة في نظرية بلاغة القرآن الكريم، د. عبد بلبع، ويذكر الباحث لذلك مثالا؛ فعصا موسى عليه السلام التي رآها القوم أمام أعينهم ثعباناً مبيناً، ورأوها تلقف حبالهم وعصيهم، فهذا الحدث من التحول والتبدل وتباين القدرات بين العصا والثعبان بادٍ للعيان، دليله هو الرؤية البصرية، ومن ثم فهو لا يحتاج إلى إقامة دليل عقلي، أما من يحاول البحث في العلة فهو كمن يريد أن يعرف ماذا في عصا موسى عليه السلام نتج عنه هذا التحول، كأنه يبحث في مادتها وعناصرها وتكوينها وتركيبها، كأنه يبحث في العلة الخفية، التي هي غير معروفة لبشر، وهي أمر اختص الله تعالى به نفسه حسب علمنا.

(٢) دلائل الإعجاز: صـ ٢٢٥.

الكل. وأن تعرفَ العلة والسَّبَب فيما يمكنك معرفةُ ذلك فيه وإنْ قلَّ فتجعلَه شاهداً فيما لم تعرفْ، أحرى من أن تسُدَّ بابَ المعرفة على نفسِك وتأخذها عن الفهم والتفهُّم وتعوِّدَها الكسلَ والهُوينى"(١).

والمتأمّل في نصّ كلام عبد القاهر يدرك أنّ مناط حديثه عن علل التباين بين الأساليب المختلفة لا عن علة الإعجاز، وذلك واضح في ثنايا حديثه عن أصحاب هذا المذهب، وعن وجهتهم المتمثلة في "أنه لا سبيلَ إلى معرفةِ العِلَّةِ في قليلِ ما تُعْرَفُ المزيةُ فيه وكثيرِه، وأنْ ليس إلا أن تعلمَ أنَّ هذا التقديمَ وهذا التنكيرَ أو هذا العطْفَ أو هذا الفصْلَ حسَنٌ. وأن له موقعًا من النفسِ وحظّاً من القَبولِ. فأمّا أن تَعْلَمَ لِمَ كان كذلك وما السَّببُ فممَّا لا سبيلَ إليه ولا مطمعَ في الاطِّلاعِ عليه"(٢)، ومن ثمّ يتبيّن لك أنّ عبد القاهر لم يكن يشير بـ (العلة) في كلامه إلا إلى إدراك مظاهر الإعجاز وليس إلى إدراك حقيقة الإعجاز، ندرك ذلك أيضاً من خلال نصّ كلامه الذي يشير فيه إلى أنه دُفع دفعًا(٣) إلى ضرورة البحث في علل التباين بشكل عام، ليختصّ الظاهرة البلاغية في القرآن بمزيد عناية، حيث يقول: "أيٌّ أشبهُ بالفتى في عقلِه ودينِه، وأزْيدُ له في علمهِ ويقينهِ، أأنْ يُقَلِّدَ في ذلك ويحفظَ متنَ الدليلِ وظاهرَ لفظهِ ولا يبحثُ عن تفسيرِ المزايا والخصائص ما هيَ ومن أينَ كَثُرَتِ الكثرةَ العظيمةَ؟، واتَّسعتِ الاتساعَ المجاوزَ لوسعِ الخلقِ وطاقةِ البشر وكيفَ يكونُ أن تظهرَ في ألفاظٍ محصورةٍ وكلمٍ معدودةٍ معلومة بأن يُؤتى ببعضِها في إثرِ بعضٍ لطائفُ لا يحصرُها العددُ ولا يَنتهي بها الأمدُ، أم أن يبحثَ عن ذلك كله؟ ويستقصيَ النظرَ في جميعهِ، ويتتبعَهُ شيئاً

(١) السابق: نفسه.

(٢) السابق: نفسه.

(٣) ينظر: مقدمة في نظرية بلاغة القرآن الكريم، د. عيد بلبع، (مرجع إلكتروني سابق).

فشيئًا، ويستقصِيَه بابًا فبابًا، حتى يعرفَ كلاًّ منه بِشاهدِهِ ودليلِـهِ، ويعلمَـه بتفسيرهِ وتأويلهِ، ويوثقَ بِتصوُّرِهِ وتمثيلهِ"(١).

إذن، لم تكن غاية الجرجاني البحث في كنه الإعجاز وحقيقتـه فـي القرآن الكريم، مع تسليمه التام به، وإنما كانت غايته التوصل إلى شواهد هذا الإعجاز ودلائله، من خلال تقديم نظرية شاملة متكاملة تـربط بـين كـلام العرب والقرآن الكريم، وهذا يفسر لنا إيراد عبد القاهر للعديد من الشـواهد الشعرية، فهو "بإيراده هذه الشواهد كان يقصد إلى تبيان وسيلة فهم الإعجاز القرآني، التي هي من جنس كلام العرب، لا الإعجاز نفسه"(٢)، وهذه الحقيقة توضح لنا أنّ عبد القاهر في كتابيه (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) كان يقدم منهجاً أدبياً محضاً يعرض فيه الرجل على القارئ الأساليب العربيـة، ويحللها ويدرسها دراسة فهم وتذوق ونقد، ويستنبط منها ما يشاء من القواعد والأصول(٣)، لينتقل منها إلى الوقوف على سر إعجاز القرآن الكريم الـذي هو من جنس كلام العرب.

المطلب الثاني: سمات المنهج ومعالمه

تكلّم بعض الباحثين حول السمات العامة لمنهج الإمام عبـد القـاهر البلاغي والنقدي، ونستأنس هنا بما ذكره د. أحمد مطلوب في بيان سـمات منهج عبد القاهر النقدي، حيث يقـول: "منهجـه النقـدي يتّسـم بصـفتين واضحتين، هما: الأولى، التحليل اللغوي القائم على نظرية النظم التي آمـن بها وألح عليها في دلائل الإعجاز، والثانية، الذوق والإحساس الروحـاني، وكان منهجه منهجًا لغويًّا تحليليًّا ينبع من داخل النصّ لا مـن خارجـه"(٤)،

(١) دلائل الإعجاز: صـ ٥٠.

(٢) معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني: صـ٩١.

(٣) ينظر: عبد القاهر الجرجاني والبلاغة العربية، د. محمد عبد المنعم خفاجي: صـ١٣٨، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٩٥٢م.

(٤) عبد القاهر الجرجاني ونقد النصّ الشعري، د. أحمد مطلوب: ص ٩، المجلة العربية للثقافة، تونس، العدد (٢٤)، ١٩٩٣م.

والذي يهمنا هنا هو التركيز على بعض سمات منهج الجرجاني في دراسة البلاغة القرآنية والإعجاز القرآني، وذلك ما يلخصّه البحث في النقاط التالية:

١.تربية الذائقة البلاغية لإدراك سرّ الإعجاز

في سبيل إرساء نظرية النّظم التي قرّرها عبد القاهر وجهًا للإعجاز وموطنا للتحدي، أورد الإمامُ في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) شواهد متعددة من القرآن، والحديث، والشعر، والأقوال المأثورة، والحكم والأمثال، لكنّ الاستشهاد بالشعر كان هو الغالب لديه، حتى إنّ شواهده الشعرية في الكتابين زادت على تسعمائة شاهد، بينما كان عدد الآيات القرآنية في الدلائل أقل من المائتين بقليل، وفي الأسرار لم تبلغ المائة[١]، ولأنّ مصنّفه الموسوم بـ (دلائل الإعجاز) تحديدًا يشير عنوانه إلى تخصصه في شأن دينيّ؛ ذهب بعض الباحثين كالدكتور مصطفى ناصف[٢]، ومن ارتأى رأيه[٣] إلى القول بأنّ فكرة النظم التي أوردها الجرجانيّ على تأمّلات دينية الجوهر في الـ(دلائل) لا تستقيم مع منهج الكتاب الذي يُقدم شواهد من مأثور الشعر، لا يبدو فيها ولا في دراستها أي ارتباط بالدين[٤]. وقد علّل لهذا النهج الذي انتهجه عبد القاهر في الدلائل د. أحمد بدوي، حيث قال: "وربما يكون سرّ ذلك يعود إلى أنه أراد أن يجعل كتابه خالصًا لشرح المقياس الذي يقاس به إعجاز القرآن، وهو بلاغته التي ترتفع إلى أسمى الدرجات، فبيّن معنى البلاغة، وترك للقارئ الناحية التطبيقية على

(١) ينظر: منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكيّ والخطيب القزويني، د. عويض العطوي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٨، ع٣٠، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ. ص٢٠٥.

(٢) ينظر: النظم في دلائل الإعجاز، د. مصطفى ناصف: ص ٤، ٢٣، ٤٥، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة: ١٩٥٥م.

(٣) ذكر د. محمد بركات أبو علي أنّ د. أحمد كمال زكي وافق على فكرة د. ناصف عندما طالع بحثه في أصوله الأولى. انظر: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني: ص ٩٥.

(٤) ينظر: النظم في دلائل الإعجاز، د. مصطفى ناصف: ص ٢١٥.

القرآن"[١]. ولو تأمّل الباحث طريقةَ الشيخ ومنهجه الذي اتّخذه سبيلًا للتوصّل إلى فهم البلاغة القرآنية، ومعرفة سرّ الإعجاز، لأدرك أنّ الجرجاني بإيراده العديد من الشواهد الشعرية، فضلًا عن سبره أغوارها، ونقده لها، وتحليله لبنيتها وتركيبها، كان يؤسس لمنهج قويم يقوم على تربية الذائقة البلاغيّة؛ حتى تصير بعد الممارسة والسبر والارتياض مؤهلةً للوقوف أمام لطائف الكتاب العزيز، والتعرف على سرّ الإعجاز فيه. وهذا المنهج اللطيف أدرك ملامحه د. مصطفى الجويني، حين قال: "هذا إذن هو منهج الجرجانيّ في بحث الإعجاز، منهجٌ قائم أوّلًا على التربية الفنية؛ تربية الذوق والإحساس والشعور بممارسة النصوص الأدبية ونقدها، والتعرّف على مواطن القبح والجمال فيها، فإذا ما أُلِف الذوق النقد، مارس النصّ القرآني باحثاً عن الجمال فيه، في نظمه، حيث يكمن سر إعجازه"[٢].

أدرك عبد القاهر إدراكًا تامًّا أهمية الذوق في الوقوف على سر إعجاز القرآن البياني، وقد صرّح الإمام في أكثر من موضع بأنّ فهم نظريته في النظم متوقف على ذوق عالٍ وقريحة ناضجة يمكنها التفريق بين كلام وآخر، وبين شعر وشعر، وتأمل قوله في شأن المزايا التي يفضل بها نظمٌ نظماً: "المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعانٍ روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبّه السامع لها، وتُحْدث له علمًا بها حتى يكون مهيّأً لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة، وممن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء منها وشيء"[٣]. وقد عرض عبد القاهر عقب مقولته تلك

(١) عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية: ص٢٩٩.

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: ص ٢١٤. نقلاً عن: إعجاز القرآن البياني: صـ ١٠٢.

(٣) دلائل الإعجاز: ص٣٩٥ـ

أمثلة عديدة من الشعر[١]؛ ليضرب بذلك مثلاً للتفرقة بين موقع شيء من الكلام إذا تصفحه القارئ وشيء آخر. ويبدو أنّ الإمام كان يستهدف بهذا المسلك إيصال طلاب العلم الباحثين عن سرّ الإعجاز القرآني إلى بلوغ الغاية، كان رحمه الله يعبّد الطريق؛ ليضع أقدام الجادين من الباحثين على جادّته.

ومن قَبل ذلك دافع عبد القاهر في مستهل كتابه (الدلائل) عن الشعر العربي دفاعًا شديدًا وذمّ من زهد عنه؛ لكونه يمثّل الوسيلة التي من خلالها يمكن تبيّن فصاحة الكلام وتباينه في الفضل، حيث يقول: "وذاك أنّا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن...هي أن كان على حدّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر...، وكان محالًا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب...ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصادّ عن ذلك صادًّا عن أن تعرف حجة الله تعالى"[٢].

أكثر الجرجانيّ في كتابيه من شعر الشعراء على اختلاف عصورهم وأزمنتهم، و"استشهد في (أسرار البلاغة) بشعر أكثر من مائة وثمانين شاعرًا، وفعل مثل ذلك في الدلائل، بدءًا بالجاهليين وانتهاءً بعصره، لكن النسب تختلف، والكثرة بلا شك للعباسيين"[٣]، وقد كان عبد القاهر "محيطًا بنماذج الشعر العربيّ وفرائده"[٤]، ومن ثمّ لم يستدع في تصانيفه من الشعر إلا ما انتقاه واختاره واطمأنّ إليه في تحقيق منهجه والوصول إلى صحة نظريته، وقد أشار عبد القاهر إلى الجهد الذي بذله في اختيار النماذج

(١) ينظر السابق: صـ ٣٩٦ وما بعدها.
(٢) السابق: صـ ٢٥.
(٣) منهج التعامل مع الشاهد البلاغي، د. عويض العطوي: صـ ٢٠٧.
(٤) البلاغة تطور وتاريخ: صـ ٢١٨.

الشعرية المناسبة وانتقائها، نلمح ذلك في قوله: "ثم إنك تحتاج أن تستقري عدة قصائد، بل أن تفلي ديواناً من الشعر، حتى تجمع منه عدة أبيات"(١).

إنّ انتقاء الجرجاني لشواهده الشعرية وتحليله لها ونقده إيّاها هو المعين الأكبر على تربية الذائقة الفنيّة وتنمية الحس البلاغي، فكان الشيخ يعرض في تصانيفه أمثلة متنوعة من الشعر جيِّدِه ورديئِه؛ ليثبت تفاوت الصنعة الشعرية وتباينها من شاعر لآخر، وليبني على ذلك بالدليل ارتفاع كلم على كلم، وعلوّ نصّ على آخر، ليؤكد علوّ النصّ القرآني وارتفاعه المطلق على ما دونه من نصوص البشر وكلامهم، ذلك الارتفاع البالغ حدّ الإعجاز، وفي كثير من الأحيان يشرح الجرجاني نماذجه الشعرية ويفسرها ويحللها ويعلل لها، وأحياناً يترك النصّ الشعري لقرّائه وطلابه دون ذلك، علّهم يتحاورونه ويحاولون سبر أغواره، وهو في كل ذلك ينهج منهجاً عمليّاً في تربية الذوق البلاغي لدى قارئه، ليوقفه بعد ممارسات عديدة في تحليل الشعر ونقده على مزية النظم القرآني وتفوقّه على ما عداه من كلام البشر.

إذاً لا يوجد ثمة تعارض بين الشواهد الشعرية الوفيرة التي أوردها عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) وبين فكرة إعجاز القرآن الكريم التي هي محور كتابه كما فهم بعض الباحثين، فتلك الشواهد ساقها عبد القاهر للتهيئة والتربية الذوقية؛ حتى يكتسب المتصدي للبحث في البلاغة القرآنية والمتلمس لسر الإعجاز القرآني حسًّا بلاغيًّا وفنيًّا ينمّي ذوقه ويصقل قريحته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يعي الدارس لكتاب الله ويدرك البون الشاسع بين النظم البشري ونظم القرآن البالغ حد الإعجاز. وعلى الرغم من أنّ بعض الشواهد الشعرية التي ساقها عبد القاهر كان مسبوقًا إليها، إلا أنّ منهج الشيخ في التعامل مع الشاهد الشعري كان متميزًا عن منهج السابقين(٢).

(١) دلائل الإعجاز: صـ ٨٣.

(٢) ينظر: منهج التعامل مع الشاهد البلاغي: صـ ٢١٠.

٢. الاستقراء واختبار الفروض

على الرغم من كبر حجم مؤلَّف عبد القاهر (دلائل الإعجاز) تحديدًا وكثرة صفحاته، إلا أنّ القضايا المنهجية فيه لا تمثّل أكثر من ربع حجم المؤلَّف تقريبًا، أمّا باقي الكتاب فموضوعه الأمثلة المتعددة من الشعر العربي والآيات القرآنية للأساليب المختلفة لنظم الألفاظ، تحقيقًا لمنهج علمي يقوم على الاستقراء واختبار الفروض(١)، وقد نصّ عبد القاهر على منهجه هذا في قوله: "وصحّ أن لا غنى بالعقل عن معرفة هذه الأمور والوقوف عليها والإحاطة بها، وأنّ الجهة التي منها يقف والسبب الذي به يعرف، استقراء كلام العرب والإحاطة بها، وتتبع أشعارهم والنظر فيها"(٢).

إنّ تطبيق عبد القاهر نظريته في النظم على أكبر قدر من النصوص على سبيل الاستقراء، يكسب النظرية مصداقيتها وثباتها، حيث يقول الدكتور محمد أبو موسى: "ينتج من التتبع والتصفح والاستقراء ولطف النظر وطول التدبر علم يوصف بأنه علم ضرورة يعني لا يعترضه شك، وكيف تكون خوافي الدلالات اللغوية غارقة في الغموض، فإذا استخرجت صار العلم بها علم ضرورة وهذا غريب ومن المواطن التي يحب العقل الحي مراجعتها، وكان منهج الشيخ كما قلت في التتبع والاستقصاء لكلام العرب، ثم لطف النظر وطول التدبر منهجًا مباركا في كشفه عن مخبآت هذا الحرف حتى رأى معاني هذا الحرف وفروقه تنثال عليه ويهمي غمامها ويتكاثر صوبها فأراد أن يطوي الحديث وأن يكتفي بما قال لأنه بهذا العطاء الغمر يمهد السبيل لمن يريد أن يسلكه"(٣).

والخلاصة أن الشيخ عبد القاهر يستخدم مفهوم الاستقراء ومفهوم القوانين العلمية بمنتهي الوضوح، فهو يستقرئ تطبيقات الشعر العربي

(١) ينظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية: صـ ٢٨٩.
(٢) دلائل الإعجاز: صـ ٥٠.
(٣) مناهج علمائنا في بناء المعرفة: ص٢١١.

بغرض استخلاص القوانين الكلية لكل قسم من أقسام نظرية النظم. ثم يعتمد على مفهوم شمولية وضرورية القوانين المستنتجة في تطبيقها لشرح مواطن الجودة والضعف في أمثلة أخرى من الشعر العربي، وقد استخلص الشيخ من كلام العرب وأشعارهم عددًا محدودًا من أساليب التغيير في نظم وترتيب الألفاظ، واستنتج القواعد العامة التي تحكمها. وهذه الأساليب الأساسية هي: التقديم والتأخير، والحذف، وعلاقة الخبر بالجملة، واستخدام الحال، والفصل والوصل. ولكل نوع منها حالات جزئية لها قواعد عامة أيضًا(١).

وثمة أمر آخر مرتبط بالاستقراء هو اختبار الفروض، حيث يمكن من خلال تلك النصوص اختبار الفروض التي يتم استقراؤها من التطبيقات العديدة في الشعر العربي والآيات القرآنية للأساليب المختلفة لنظم الألفاظ، يقول عبد القاهر مبيناً أهمية اختبار الفروض وإجراء الاحتمالات الموازية في معرفة القيمة البلاغية للتراكيب: "واعلمْ أنه إذا كان بَيّناً في الشيء أنه لا يَحْتَمِلُ إلاّ الوجهُ الذي هو عليه حتّى لا يُشكِلَ وحتى لا يُحْتَاجَ في العلم بأنَّ ذلك حقّه وأنه الصَّوابُ إلى فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ فلا مَزِيَّةَ. وإنما تكونُ المزيةُ ويجبُ الفضلُ إذا احتَمَل في ظاهِرِ الحالِ غيرَ الوجه الذي جاءَ عليه وجهاً آخرَ ثمَّ رأيتَ النفسَ تَنبو عن ذلكَ الوجهِ الآخرِ ورأيتَ للذي جاء عليه حُسْناً وقبولاً يَعْدَمهُما إذا أنت تركتَه إلى الثاني"(٢).

ولا يقف عبد القاهر عند حدّ التنظير وبيان فعاليّة هذا المبدأ، وإنما ينتقل من التنظير إلى التطبيق، ومن إرساء المبدأ إلى الإجراء، وذلك في العديد من المواضع التي قام التحليل فيها على أساس إجراء الاحتمالات المتعددة للتراكيب للوصول إلى المزيّة، ولنأخذ لذلك مثلًا عندما عرض عبد القاهر لقول الله عز وجلّ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شركاء الجنّ﴾(٣)، موضحًا الفرق

(١) ينظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية: صـ ٢٩٥.
(٢) دلائل الإعجاز: صـ ٢٢١.
(٣) سورة الأنعام: آية ١٠٠.

بين النظم القرآني المبني على تنكير (شركاء) ثمّ تفسيرها بـ(الجنّ)، وبين عدة احتمالات افتراضية، من مثل: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ الجنّ شركاء)، (جَعَلوا الجنَّ شركاءَ لله)، حيث يقول: "ليس بخافٍ أنّ لتقديمِ الشركاء حُسنًا وروعةً ومأخذًا من القلوبِ أنتَ لا تجدُ شيئاً منه إنْ أنتَ أخَّرتَ فقلتَ: وجَعَلوا الجنَّ شركاءَ لله، وأنك ترى حالكَ حالَ مَن نُقِلَ عن الصورةِ المبهجة والمنظرِ الرائق والحُسْنِ الباهرِ إلى الشيءِ الغُفْلِ الذي لا تَحْلَى منه بكثير طائلٍ ولا تصيرُ النفسُ به إلى حاصلٍ. والسببُ في أن كانَ ذلك كذلكَ هو أنّ للتقديم فائدةً شريفةً. ومعنى جليلاً لا سبيلَ إليه مع التأخيرِ. بيانه أنّا وإنْ كنّا نرى جملةَ المعنى ومحصولَه أنَّهم جعلوا الجنَّ شركاءَ وعبدوهم مع الله تعالى وكان هذا المعنى يحصُل مع التأخيرِ حصولَه مع التقديمِ فإنَّ تقديمَ الشركاءِ يفيدُ هذا المعنى ويفيدُ معه معنى آخر وهو أنه ما كانَ ينبغي أن يكونَ لله شريكٌ لا مِنَ الجنِ ولا غيرِ الجن. وإذا أُخِّرَ فقيل: جَعَلوا الجنَّ شركاءَ لله لم يُفِدْ ذلكَ ولم يكنْ فيه شيء أكثرُ من الإخبارِ عنهم بأنهم عبدُوا الجنَّ مع الله تعالى. فأما إنكارُ أنْ يُعْبَد مَعَ الله غيرُه وأنْ يكونَ له شريكٌ مِنَ الجنِّ وغيرِ الجنِّ فلا يكونُ في اللفظِ مع تأخيرِ الشركاءِ دليلٌ عليه. وذلك أن التقديرَ يكونُ مع التقديمِ أنَّ "شركاءَ" مفعولٌ أولُ لجعلَ و "لله" في موضعِ المفعولِ الثاني ويكونُ "الجنّ" على كلامٍ ثانٍ على تقديرِ أنه كأنّه قيل فمن جعلوا شركاءَ" الله تعالى فقيل: الجنَّ وإذا كان التقديرُ في" شركاءَ" أنّه مفعولٌ أوّلُ و "لله" في موضعِ المفعولِ الثاني وقَعَ الإنكارُ على كونِ شركاءِ الله تعالى على الإطلاق من غيرِ اختصاصِ شيءٍ دونَ شيءٍ وحصَلَ من ذلك أن اتخاذ الشَّريكِ من غَيْرِ الجنِّ قد دَخَلَ في الإنكارِ دخولَ اتِّخاذِه من الجنِّ لأَنَّ الصفَة إذا ذُكرتْ مجرَّدَةً غيرَ مُجراةٍ على شيءٍ كانَ الذي تَعَلَّقَ بها من النَّفْي عامًّا في كلِّ ما يجوزُ أن تكونَ له تلك الصفةُ، فإذا قلتَ: ما في الدار كريمٌ كنتَ نفيتَ الكينونَةَ في الدارِ عنْ كلِّ من يكون الكرمُ صفةً له. وحكمُ الإنكارِ أبداً حكمُ النفي. وإذا أُخِّرَ فقيلَ: وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله كان "الجنَّ" مفعولاً أولَ و "الشركاء" مفعولاً ثانياً. وإذا كان كذلك كان "الشركاء" مخصوصاً غيرَ

مطلقٍ من حيثُ كانَ مُحالاً أن يجريَ خبراً على الجنِّ ثم يكونَ عاماً فيهم وفي غيرهم وإذا كان كذلكَ احتملَ أن يكونَ القصدُ بالإنكار إلى الجنِّ خصوصاً أن يكونوا شركاءَ دونَ غيرهم جَلَّ الله وتعالى عن أن يكونَ له شريكٌ وشبيهٌ بحالٍ"(١).

وبعد تجريب كل الفروض المحتملة في التركيب، يصل عبد القاهر إلى النتيجة التي لا مراء في صدقها، حيث يقول: "فانظُرِ الآنَ إلى شَرَفِ ما حصلَ من المعنى بأن قدِّم الشركاءُ واعتبرْه، فإنه يُنبِّهك لكثيرٍ منَ الأمورِ ويدلُّكَ على عِظَمِ شأنِ النظمِ، وتَعْلَمُ به كيف يكونُ الإيجازُ بهِ وما صورَتُه وكيف يُزادُ في المعنى من غيرِ أن يُزادَ في اللفظِ إذ قدْ ترى أنْ ليس إلاّ تقديمٌ وتأخيرٌ وأنه قد حَصلَ لك بذلك من زيادةِ المعنى ما إنْ حاولتَ مع تَرْكِه لم يحصُلْ لك واحتجْتَ إلى أن تستأْنِفَ له كلاماً نحوَ أن تقولَ: وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله وما ينبغي أن يكونَ لله شريكٌ لا مِنَ الجنِّ ولا مِنْ غيرِهم. ثم لا يكونُ له إذا عُقِلَ من كلامين من الشَّرفِ والفخامةِ ومنْ كرمِ الموقعِ في النفسِ ما تجِدُهُ له الآنَ وقد عُقِلَ من هذا الكلامِ الواحدِ"(٢).

٣. التحليل والتعليل

من خلال ما تقدم في العنصر السابق يتبين لنا ضرورة التحليل اللغوي في منهج عبد القاهر، ذلك أنّ الاستقراء واختبار الفروض يستلزمان التحليل اللغوي الدقيق؛ لبيان كيف تتفق القاعدة مع التطبيق في هذه الحالات المختلفة العديدة. وخذ لذلك مثلاً، ففي معرض حديث عبد القاهر عن التقديم والتأخير في حالة "الخبر المثبت"(٣) بعد ما طرح الشيخ القاعدة وشرحها، عرض لها نموذجاً من الشعر هو: (هم يفرشون اللبد كل طمرة...) وشرحه، ثمّ عرض نموذجاً آخر: (هم يضربون الكبش يبرق بيضه...) وشرحه، ثمّ أخذ يحقّق

(١) دلائل الإعجاز: صـ ٢٢٢.

(٢) السابق: نفسه.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز: صـ ١١٠ وما بعدها.

فكرته من خلال نموذج ثالث من الشعر: (سليمى أزمعت بينا)، ورابع: (هما يلبسان المجد أحسن لبسة)، ثمّ بعد أن حقق الفكرة وأكّد القاعدة، وأكسب قارئه مهارة التحليل، ينتقل من النصّ الشعري إلى النصّ القرآني، بذكر مثالين من سورتي الفرقان والمائدة، مقدِّمًا لهما بعبارة تدل على الأفضلية والعلو على ما سبقهما من القول، حيث يقول: "وأبين من الجميع قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[1]، وقوله عز وجل ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾"[2]، ثم يضرب مثالا آخر من سورة الحج ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[3]، وكذلك سورة المؤمنون ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[4]، ويسترسل في شرح الميزة التي تترتب على تلك القاعدة "تقديم الخبر"، وفي التدليل عليها من اللغة العادية ومن آيات القرآن وفي النهاية يصل إلى أن القاعدة قد تحققت. ولا يخفى أنّ التحليل يرتبط بالفكر الإنساني ارتباطاً وثيقاً، إذْ يعد وسيلة معرفية تساعد على الفهم والتعلم؛ لذلك لم تستغنِ عنه العلوم الإنسانية والعلمية، أو بالأحرى كل العلوم التي يتناولها الإنسان.

٤.الكلية والشمولية

كانت غاية عبد القاهر الوصول إلى نظرية كلية شاملة متكاملة، تنطبق على كافة آي القرآن الكريم ويصح سريانها في جميع أجزائه وتكويناته، ومن ثمّ فقد دحض عبد القاهر كافة النظريات الجزئية المحدودة التي تعتمد على نمط معين من أنماط اللغة كالمجاز أو الاستعارة؛ وذلك لإثبات صحة نظريته الشاملة لكافة الأنماط والأساليب والتراكيب اللغوية.

(١) الفرقان: آية ٣.
(٢) المائدة: آية ٦١.
(٣) الحج: آية ٤٦.
(٤) المؤمنون: آية ١١٧.

ويقرر عبد القاهر مبدأً أساسيًّا يقوم على شموليّة القواعد والقوانين اللغوية التي توصّل إليها في إطار فكرة النظم لكافة الحالات والأنماط المتماثلة، وفي جميع الأحوال، بحيث لا يصحّ تطبيقها في بعض الأحوال وعدم تطبيقها في أحوال أخر، وإن شئت تأمل قوله في إطار حديثه عن التقديم والتأخير: "واعلم أنّ من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدًا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه. ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى. فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام، أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة من التأخير، فقد وجب أن تكون تلك القضية في كل شيء وفي كل حال"(١).

وهكذا أراد عبد القاهر لنظريته أن تكون كلية شاملة، تسري على كافة آي القرآن الكريم كما تسري على غيره من الكلام؛ حتى تتبين المزيّة ويظهر الفضل لكلام الله على ما عداه من كلام البشر.

٥.الاطّراد

بناءً على ما سبق نجد أنّ عبد القاهر قد توصّل في دراسته للبلاغة القرآنية إلى اطراد بعض الظواهر اللغوية في النظم القرآني، وذلك واضح في دراسة عبد القاهر، وله في ذلك تعبيرات تؤكد توصّله إلى أنماط لغوية مطردة في كافة آي القرآن الكريم، منها النصّ على لفظ الاطراد وذكره صراحة، مثل قوله: "أما حذفُ الخبر الذي قلنا إنه (لنا) أو (في الوجود) فمطَّردٌ في كلِّ ما معناهُ التوحيدُ ونفيُ أن يكون مع الله – تعالى عن ذلك – إلهٌ"(٢)، ومنها كلمة (أبدًا) التي ذكرها الإمام تأكيدًا على اطّراد التأكيد والتقوية في معرض حديثه عن ضمير الشأن أو القصة: "كذلك السبيلُ أبداً

(١) دلائل الإعجاز: صـ ٩٩.

(٢) السابق: صـ٢٨٥.

في كل كلامٍ كان فيه ضميرُ قصة، فقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(١) يفيدُ من القوة في نفيِ الفَلاحِ عنِ الكافرين ما لو قيل: إنَّ الكافرين لا يُفلحون لم يُفدْ ذلك، ولم يكن ذلكَ كذلك إلاّ لأنك تعلمُه إياهُ من بعدِ تقدمةٍ وتنبيهٍ أنتَ به في حُكم مَنْ بدأ وأعادَ ووطَّد، ثم بيَّنَ ولوَّح، ثم صرَّح. ولا يَخْفى مكانُ المزيَّة فيما طريقُه هذا الطريق"(٢)، وكذلك في إطار حديثه عن حذف مفعول المشيئة في القرآن الكريم: "وإذا استقرَيْتَ وجدتَ الأمرَ كذلك أبداً متى كان مفعولُ المشيئةِ أمراً عظيماً أو بديعاً غريباً كان الأحسنُ أن يُذْكَر ولا يُضْمَر"(٣).

وقد سبق عبد القاهر بعض العلماء الذين ألمحوا إلى اطراد بعض الظواهر اللغوية في النظم القرآني، كالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي نبّه إلى إعجاز القرآن في سلوكه طريقة واحدة في القول تخالف استعمال الناس، إذ يقول: "ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعًا"(٤). إلا أنّ منهج عبد القاهر يتميز بأنه "لم يجعل الاطراد في النظم العالي وما تولد منه

(١) المؤمنون: آية ١١٧.

(٢) دلائل الإعجاز: صـ١١٣.

(٣) السابق : صـ١٣٤.

(٤) البيان والتبيين، للجاحظ: ٢٠/١، تح. عبد السلام محمد هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة: ١٤١٨هـ/١٩٧٨م.

من اطراد الأغراض والفوائد اعتباطاً ولا جزافاً، بل قرنه بسياقه الدقيق وموضعه الأخص الأشكل به"[١].

وبعد، فمن خلال ما تقدم يمكن القول بأنّ عبد القاهر "قد تمّم فكرته بمنهج بعيد الشبه بالمناهج الموروثة حتى عصره، فلم يكن مقلّدًا لمن سبقه من رجال ولا جامعًا لآرائهم، بل كان مفكرًا استفاد بما ذكروه، ومبتكرًا لما لم يعرفوه"[٢]، وقد تميّز الجرجاني عن سابقيه من العلماء الذين درسوا قضية الإعجاز القرآني بجعله سرّ إعجاز القرآن الكريم كامناً في نظمه، ومتانة نسجه، وقوة أسلوبه، وروعة بيانه، معللًا لذلك بتوخّي معاني النحو، وترتيب المعاني في النفس، على الوجه الذي يقتضيه العقل. وقد حمل كتابه (دلائل الإعجاز) فكرته في صورتها النهائية، بعد أن مهّد لها في (الرسالة الشافية) و(أسرار البلاغة)، وقد عمل الإمام جاهدًا "على إبراز فكرة الإعجاز في قالب علمي مزيد، وعرضها عرضًا أميناً ومستفيضًا في الوقت نفسه؛ حتى اعتبر بحق لدى كثير من المنصفين أول من نظم الأفكار التي كانت موضوع بلاغة القرآن الكريم"[٣]. رحم الله الإمام الجرجاني، وجعل جهده في ميزان حسناته.

(١) الاطراد عند عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) بين القاعدة والنصّ، د. علي عبد الحميد عيسى، منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد (٣٣) ١٩٩٩م، ج٣، ص٢٩٢.

(٢) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف: صـ ٩٦.

(٣) السابق: صـ ١٠١.

الخاتمة، ونتائج الدراسة

هنا يرسو القلم؛ ليرصُد البحث ما انتهى إليه من نتائج كما يأتي:

١. إذا كانت ثقافة عبد القاهر اللغوية عمومًا والنحوية على جهة الخصوص كان لها دور كبير في بلورة نظريته في (النظم) الذي هو مناط الإعجاز وموطن التحدي لديه، فإنّه لا ينبغي إغفال النزعة الدينية الإيمانية التي كان ينطوي عليها الشيخ، والتي تشير إلى أنّه لم يكتب في البلاغة لذاتها، وإنّما كتب خدمة لعقيدته ودينه، ورغبة في أن يفهم الناس الإعجاز القرآني كما ينبغي أن يفهم في رأيه.

٢. قضيّة الإعجاز القرآنيّ كانت مطروحة على ساحة الفكر الإسلاميّ قبل عبد القاهر بزمن بعيد، وكانت تشكّل محورًا مركزيًا لدى المتكلمين والبيانيّين على حدّ سواء. وانطلق البحث فيها ببيان خصائص الأسلوب العربي الذي على نمطه يجري البيان القرآني، ثمّ تدرج إلى بحث فيم كان الإعجاز؟ وبم يُعلل؟ ومن ثمّ تعددت الرؤى وتوزعت بين القول بالصرفة والقول بالنظم.

٣. كانت مسألة الإعجاز قبل عبد القاهر دائرة في فلك دينيّ خالص عند الذين جعلوا الإعجاز في الصرفة؛ وذلك لأنهم عزوا القضية إلى الإيمان بالقدرة الإلهية، أمّا الذين جعلوا الإعجاز في النظم قبله فإنهم وإن كانوا قد عزوا القضية إلى الجانب اللغوي، إلا أنهم لم يرتكزوا على أسس عقلية واضحة ومعايير علمية صحيحة يمكن أن تقاس عندها النصوص حتى يمكن إثبات علو نصّ إلى حد الإعجاز، وحتى يتم التفريق بين نص معجز وآخر غير معجز.

٤. اضطلع عبد القاهر بمسؤولية إعادة النظر في رؤى السابقين المكتنفة بالغموض، فألزم نفسه أن يشق طريقًا جديدًا ينقل فيه فكرة النظم الذي هو لبّ الإعجاز من الخفاء إلى الجلاء، ومن الغموض إلى الوضوح، فجاءت رؤيته في بيان وجه الإعجاز واضحة وموضحة.

٥.ارتقت فكرة النظم لدى عبد القاهر لتكوّن نظرية متكاملة الأركان، ولتعالج كافة الصياغات، ولتبحث عن الإمكانات المتنوعة للتصميم اللغوي على صعيد النصّ في تقاطعاته مع السياقات المختلفة، وعلى صعيد الجملة في استئناسها بالأنساق المتنوعة.

٦.كانت فكرة الإعجاز محطّ نظر عبد القاهر في مؤلفاته كلها المتّصلة بالبلاغة والإعجاز التي وصلت إلينا، إلا أنه لم يشأ أن يطرح فكرته حول وجه الإعجاز إلا بعد أن يُمهّد لها ويؤسّسَ لبنائها؛ فجاء إيغاله فيها برفق.

٧.دراسة المنهج تبرز مستوى النضوج العلمي والفكري والتطور الذهني للعقلية الإنسانية في تعاملها مع العلوم، وإذا كان الأساس في المنهج أن يكون مرسومًا من قبل بطريقة تأملية مقصودة، فهناك منهج تلقائي يكون نوعا من السير الطبيعي للعقل لم تحدد أصوله سابقًا. ولعلّ هذا النمط كان سمتًا لمنهج الإمام عبد القاهر وطريقته في بحث مسألة الإعجاز القرآني وما تمخّض عنها من تأطير لنظرية النظم وتأسيس لمقاييس البلاغة.

٨.لم يكن عبد القاهر معنيًا باكتشاف كُنه الإعجاز وعلّته، وإنما كان بحثه متوجهاً نحو شواهد الإعجاز ودلائله، والبحث في العلة يختلف عن البحث في الدليل، فالبحث في العلّة يؤدي إلى إدراك وجه الإعجاز وكنهه وحقيقته؛ لأنّ إدراك العلّة يعني الإحاطة بالشيء ومعرفة جوهره الخفي، أما البحث في الدليل فإنه يؤدي إلى الكشف عن وجوه البلاغة وإدراك مظاهر الإعجاز وليس حقيقته؛ فالدليل هو مظهر خارجي وأمارة ظاهرية.

٩.كان الاستشهاد بالشعر هو الغالب لدى عبد القاهر في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، فقد زادت شواهده الشعرية في الكتابين على تسعمائة شاهد، بينما كان عدد الآيات القرآنية في الدلائل أقل من المائتين بقليل، وفي الأسرار لم تبلغ المائة؛ لأنه كان يؤسس لمنهج يقوم على

تربية الذائقة البلاغيّة؛ حتى تصير بعد الارتياض بفن القول والخبرة الحثيثة بجيده وردئيه مؤهلةً للوقوف أمام لطائف الكتاب العزيز، والتعرف على سرّ الإعجاز فيه.

١٠.طبق عبد القاهر نظريته في النظم على أكبر قدر من النصوص على سبيل الاستقراء، وكان يستخدم مفهوم القوانين العلمية بمنتهي الوضوح، فهو يستقرئ تطبيقات الشعر العربي بغرض استخلاص القوانين الكلية لكل قسم من أقسام نظرية النظم. ثم يعتمد على مفهوم شمولية وضرورية القوانين المستنتجة في تطبيقها لشرح مواطن الجودة والضعف في أمثلة أخرى من الشعر العربي، وقد استخلص الشيخ من كلام العرب وأشعارهم عددًا محدودًا من أساليب التغيير في نظم وترتيب الألفاظ، واستنتج القواعد العامة التي تحكمها.

١١.كانت غاية عبد القاهر الوصول إلى نظرية كلية شاملة متكاملة، تنطبق على كافة آي القرآن الكريم ويصح سريانها في جميع أجزائه وتكويناته، ومن ثمّ فقد دحض كافة النظريات الجزئية المحدودة التي تعتمد على نمط معين من أنماط اللغة كالمجاز أو الاستعارة. وتوصل في دراسته إلى اطراد بعض الظواهر اللغوية في النظم القرآني.

١٢.تمّم عبد القاهر فكرته بمنهج بعيد الشبه بالمناهج الموروثة حتى عصره، وتميّز عن سابقيه من العلماء الذين درسوا قضية الإعجاز القرآني بجعله سرّ إعجاز القرآن الكريم كامناً في نظمه، ومتانة نسجه، وقوة أسلوبه، وروعة بيانه، معلّلًا لذلك بتوخّي معاني النحو، وترتيب المعاني في النفس، على الوجه الذي يقتضيه العقل.

١٣.استطاع الإمام عبد القاهر أن ينتقل بقضية الإعجاز القرآني من الـــدينيّ الخاص إلى العقلي العام، ومن اللغوي المحدود المتمثّل في نمط معـــيّن من أنماط اللغة كالمجاز وغيره، إلى اللغوي العام؛ ليؤسس نظرية كليّة متكاملة يقوم الإعجاز فيها على النظم المتفرّد في إطار النظام العام للغة، وبذلك توصّل إلى معيار عام وشامل للحكم على القول، في الوقت ذاتـــه الذي أسس فيه منهجاً علميًّا وعقلياً لتقييم نصوص كلام العرب في مقابل النصّ القرآني الكريم، من أجل إثبات أن جودة الكلام يمكن أن تعلو إلى درجة لا حدود لها حتى تصل إلى حدّ الإعجاز.

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين

****

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١.الإبهام في شعر الحداثة العوامل والمظاهر وآليات التأويل، د. عبد الرحمن محمد القعود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٢٧٩، ذو الحجة ١٤٢٢هـ/ مارس ٢٠٠٢م.

٢.الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تح. سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

٣.أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تح. محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، ط١، ١٤١٢هـ.

٤.الاطراد عند عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) بين القاعدة والنصّ، د. علي عبد الحميد عيسى، منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد (٣٣) ١٩٩٩م، ج٣.

٥.إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٦.إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧.إعجاز القرآن، للباقلاني، تح. السيد أحمد صقر، ط. دار المعارف بمصر ضمن سلسلة ذخائر العرب (د.ت).

٨.إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.١ دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

٩.البلاغة تطوّر وتاريخ، البلاغة تطوّر وتاريخ ــ شوقي ضيف ــ دار المعارف ــ ط٨ ــ ١٩٩٢

١٠.البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، للفيروزابادي، تح محمد المصري دار سعد الدين، دمشق، ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
١١.بيان إعجاز القرآن، للباقلاني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح. محمد زغلول سلام، ومحمد خلف، ط. دار المعارف بمصر (د.ت).
١٢.البيان والتبيين، للجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة: ١٤١٨هـ/١٩٧٨م.
١٣.تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تح. السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
١٤.دلائل الإعجاز، للجرجاني، تح. محمود محمد شاكر، المدني بالقاهرة، وجدة – ط/٣ – ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.
١٥.دلائل الإعجاز: تح. د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
١٦.دمية القصر وعصرة أهل العصر، لأبي حسن الباخرزي، تح. د. سامي العاتي، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٥هـ.
١٧.الرسالة الشافية في الإعجاز، للشيخ عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٨.سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تح. مجموعة من المحققين تحت إشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٩.شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، القدسي، القاهرة: ١٣٥١هـ.
٢٠.طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).

٢١.عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، دار العلم لملايين، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ.
٢٢.عبد القاهر الجرجاني والبلاغة العربية، د. محمد عبد المنعم خفاجي، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٩٥٢م.
٢٣.عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، د. أحمد أحمد بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة (بدون).
٢٤.عبد القاهر الجرجاني ونقد النصّ الشعري، د. أحمد مطلوب، المجلة العربية للثقافة، تونس، العدد (٢٤)، ١٩٩٣م.
٢٥.علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط٧، ١٩٧٢م.
٢٦.عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز، د. محمد السيد راضي جبريل، بحوث ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه.
٢٧.فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتب، تح. د. إحسان عباس، دار صادر (د.ت).
٢٨.الحيوان، للجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، ط. مصطفى البابي الحلبي، ط٢: ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.
٢٩.لسان العرب، لابن منظور (محمد بن مكرم بن على بن أحمد الأنصاري، ت ٧١١هـ): تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط٣ ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
٣٠.مداخل إلى إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر: ص ٩٧-٩٩ . القاهرة مطبعة المدني ط١، ٢٠٠٢/١٤٢٣
٣١.مدخل إلى المنهجية في العلوم الاجتماعية، فارس إشتي، مجلة العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، بيروت، العدد الأول، المجلد الأول.

٣٢.معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني (سلسلة الدراسات البلاغية)، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

٣٣.معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا، ت٣٩٥هـ)، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣٤.مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية صيدا بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٣٥.مقدمة في نظرية بلاغة القرآن الكريم، د. عيد بلبع، مدونة (سياقات) الإلكترونية.

٣٦.مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٣، ١٩٧٧م.

٣٧.مناهج علمائنا في بناء المعرفة، د. محمد محمد أبو موسى، منشور ضمن محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى،١٤٢٠/١٩٩٩م.

٣٨.مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (محمد بن عبد العظيم)، تح. مكتب البحوث والدراسات، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م.

٣٩.منهج التجديد الديني عند عبد القاهر الجرجاني، د. سمير أبو زيد، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد ٣٦، ٢٠٠٥م

٤٠.منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكيّ والخطيب القزويني، د. عويض العطوي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٨، ع٣٠، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ.

٤١.منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، د. مصطفى الصادق الجويني، دار المعارف بمصر، مكتبة الدراسات الأدبية، ط٢، ١٩٦٨م.
٤٢.نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنبارِي، تـــح. محمـــد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة (بدون).
٤٣.نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني أول محاولة في العلوم الإنسانية (الجزء الأول)، د. سمير أبو زيد، مجلة (المواقف) للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، الجزائر، العدد الأول: ديسمبر ٢٠٠٧م.
٤٤.النظم في دلائل الإعجاز، د. مصطفى ناصف، حوليات كليـــة الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة: ١٩٥٥م.
٤٥.النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تـــح. محمد زغلول سلام، ومحمد خلف، ط. دار المعارف بمصر (د.ت).

ثامناً :
الأدب والنقد